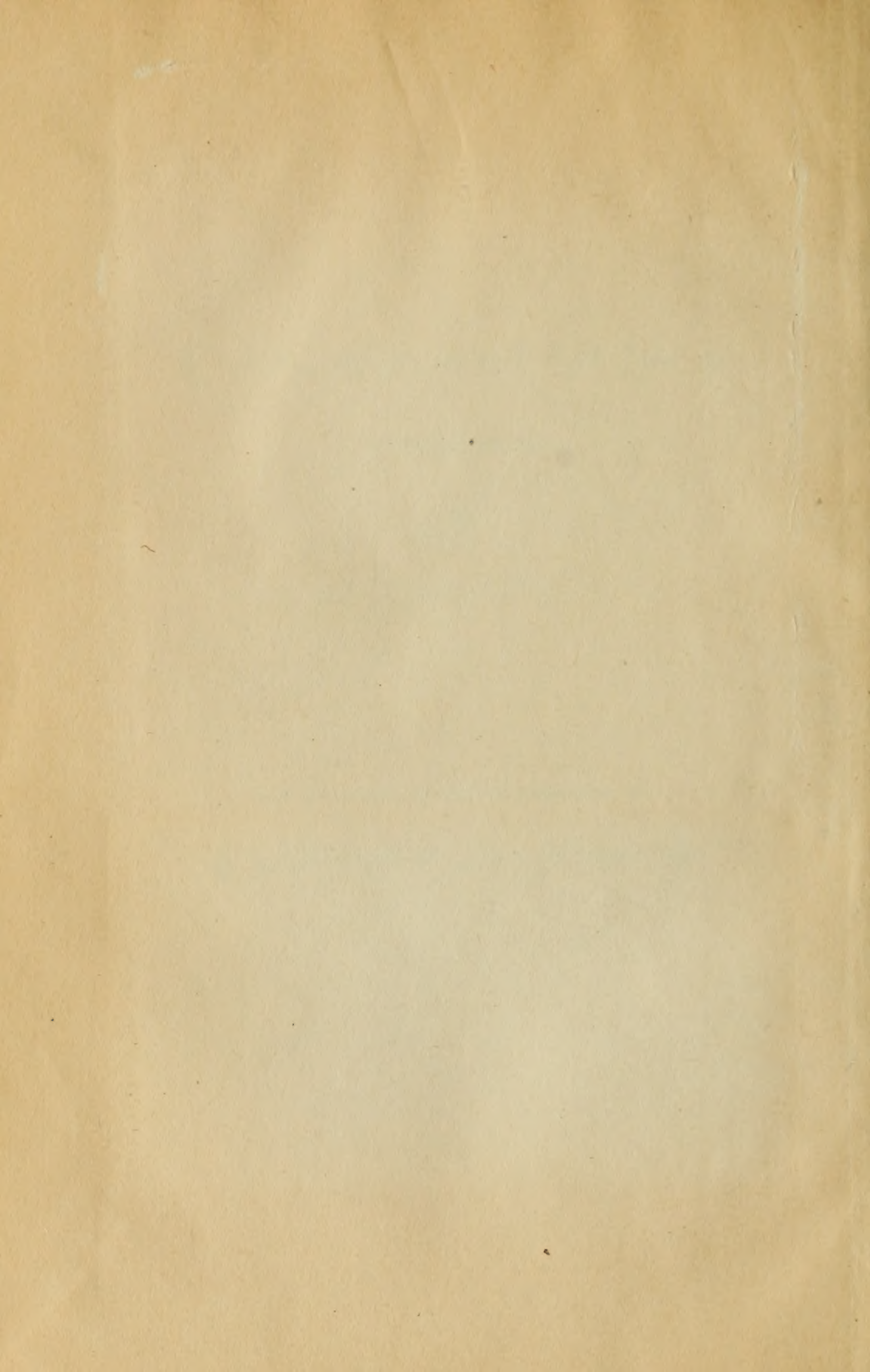
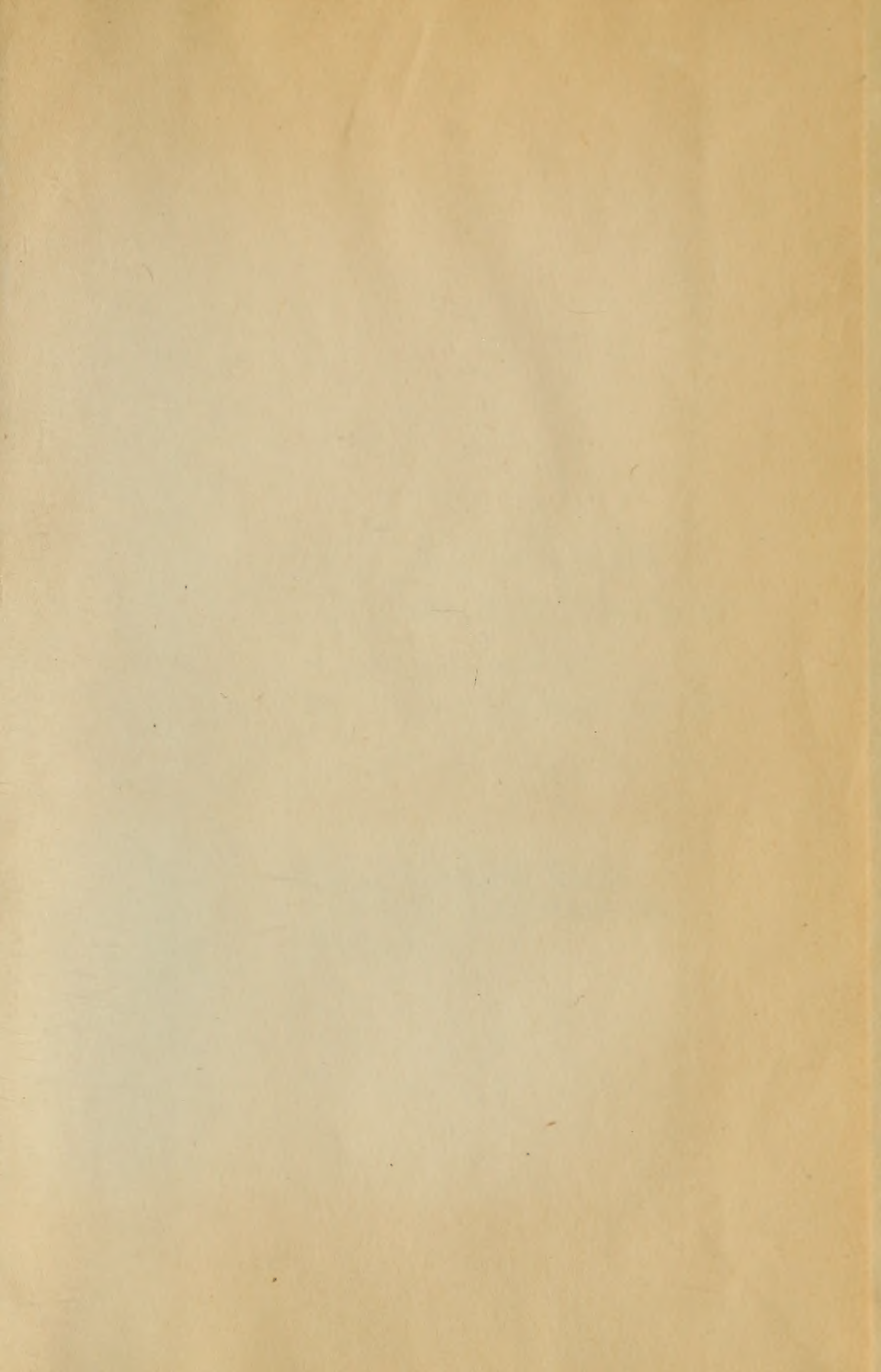


رجلي





تطبيق الديانة الاسلاميه على نواميس المدنيه

تأليف

(محمد فريد وجدى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد . وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد الذي اجتبيته من بين خلقك لأن يكون مستودعا لأسرارك وناشرا لتعاليمك وواسطة بينك وبين عبادك يهديهم بنورك الأقدس الى سعادتهم الدنيوية والأخرويه . ربنا أسبغ عليه سحائب تكريمك وتشريفك وبلغه المقام المحمود الذي وعدته به وألهمنا السير على هديه وهدى أصحابه وهبنا اللهم نورا نفهم به ما أوحيت اليه من محكم كلامك وجليل خطابك حتى نستوجب رضاك ونستحق نعماك . وامدد اللهم مثل هذه الصلاة والسلام على آله وأصحابه وتابعيه الى يوم الدين انك سميع الدعاء واسع العطاء آمين

﴿ أما بعد ﴾ فانه لا يخفى على كل شرقي الآن أن العلاقة بين الشرق والغرب قد وصلت خصوصا في الجزء الأخير من هذا القرن الى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ وان مصالح الطرفين قد اشتبكت تبعا لذلك اشتباكا يوجب أن يتعارف الفريقان تعارفا يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائما اضطرام نيران الشقاق بينهما مما يدعو الى التقاطع المنافي لمطالب المدنية المستقبلة . نعم ان الاتصال بين الشرق والغرب أصبح عظيما وسيأخذ في التزايد يوما بعد يوم حتى تصير بلاد المشرق كلها عبارة عن معرض عام تعرض فيه أنواع البضائع والصناعات ويحضره الناس من كافة الملل واللغات . ونحن هنا لا نريد أن نبحث فيما اذا كان في هذا الامتزاج الشديد مضرة لأحد الطرفين أوفيما اذا كان مفيدا لكليهما

بل

بل ذلك مما لا دخل فيه لكتابنا هذا ولكنا فقط نريد أن نقوم بعمل مخصوص لا مناص منه على كل حال * ماهو ذلك العمل وما وجه كونه ضروريا لا مناص منه * ذلك العمل هو تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الاسلامى وماهيته واثبات أنه ضامن للانسان نيل السعادتين وكافل له راحة الحياتين . وأما وجه كونه ضروريا لا مناص منه فهو أن الغربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنفوذ على معظم العالم الاسلامى وماداموا جاهلين بحقيقة الاسلام ومعتقدين ما يهذى به بعض كتابهم ضده فانهم لا يستطيعون طبعا أن يروا فى ديانة محكوميهم الا عبأ ثقيلا على عقولهم وحملا مضنيا لمداركهم فلا يقرونهم عليه الا احتراما للاحساسات فقط راجين من العلوم العصريه والمعارف الطبيعيه القيام بتهذيبه فى المستقبل * نقول بتمام الحرية ان الأوربيين معذورون فى تصديق التهم ضد الاسلام والمسلمين ولهم الحق فى العمل ضدها ماداموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين الا البدع التى اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة وزادوا عليها أشكالا من الاوهام والاضاليل تنفر منها الطباع البشرية وتنافى أصول المدنيه . كيف نرجوا أن يفهم الأوربيون حقيقة ديننا وانه الملاك الوحيد للسعادات كلها حالة كونهم لا يعرفون من دين الاسلام الا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للادب والعقل فى الموالد التى تقام فى كثير من نقاط القطر المصرى ومثل الاجتماع الى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين والصياح الشديد بالله مع التمايل يمينا ويسارا * ومثل ومثل مما لو أردناه لكره اطالة بنا الكلام وخرجنا عن المقام * فهل والحالة هذه نستطيع أن ننكر على من يعيب ديننا أو يلصق به شائنات التهم . أليس هو معذورين فى هذا الفهم السيئ مادام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا فى أنفسهم ميلا الى رأب هذا الصدع المتفاقم الذى لم يقتصر على جر عوامنا الى المنكرات

والآثام فقط بل الى الاخلال أيضا بعقيدة التوحيد النقية وهو الأمر الذى لو تأصلت جذوره فى العقول البسيطة صعب جدا اقتلاعه منها

نسمع كل جمعة على المنابر قائلا يقول لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه ولكنا لم نسمع قط بأن عاقلا قام يبحث بدقة وثبات عن أسباب هذا الاضمحلال الشديد الذى وقعت فيه الأمة الاسلاميه من منذ قرون كثيرة . أما والعلم لو بحث باحث عن علل هذا الهبوط الهائل بعد ذلك الصعود السريع ما وجدها الا فى ترك السنن واتباع البدع . ولو كان المجال أوسع من هذا لأرينا المطالع أن البدعة الواحدة قد يتبعها جملة عوامل شريه لا يراها الا من ينظر للاشياء بمنظار العلم وان هذه العوامل متى رسخت قواعدها وثبتت دعائمها انبنى عليها داء من أدواء الامم تظهر أعراضه وآثاره لكل مشاهد ولو كان هو نفسه كامنا كمون الارقم فى جحره ولا يظهر الا ريثما يأنس من حوله العجز عن ملاشاته لهذه الاسباب كلها صار الشرقى المتنور ملقيا على عاتقه واجبان . أولهما تفهيم العالم أجمع ان الدين الاسلامى فضلا عن كونه بريئا من الاضاليل التى ينسبها اليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين فانه ناموس السعادة الحقيقيه وملاك المدنية الصادقه حتى ينبعثوا الى احترامه ومحبته كما يحترمه ويحبه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه . هذا الواجب يلقى على عاتق أبناء هذه الملة الذين أسعدهم الجد بتعلم اللغات الاجنبيه . ثانيهما أن يسعى عقلاء هذه الامة فى محو البدع التى غص بها العالم الاسلامى وصارت نقطة سوداء فى جبين الشرق وموضوع استهزاء كافة من أنشده مسكة من العقل . هذا الواجب أشد لزوما من الواجب الاول وعليه ينبنى صلاح هذه الأمة أو فسادها فعسانا نلتفت اليه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء والا فالعاقبة وخيمة والمسؤلية عظيمة . قال عليه الصلاة والسلام (لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا)

هذه

هذه الافكار كانت تجيش فى خاطرى من منذ أربعة سنوات وانا اذذاك فى سن البدء فى العمل للوطن فلم أر أفضل فى خدمته من هذه الوجهة فثابرت من حينها بهمة لاتعرف الملل على درس مايؤهلنى الى فهم حقيقة الاسلام حتى آنست من نفسى بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الاقدس فابتدأت أعمالى بتاليف كتاب باللغة الفرنساويه نفيت فيه عن الاسلام كل تهمة ألصقها به المفترون وأثبت بالادلة الحسيه وبالاستناد على البداءة العلميه انه روح المدنيه الحقيقيه وعين أمنية النفس البشريه ونهاية ماترمى اليه القوة العقليه وان كل رقى يحصل فى العالم الانسانى ليس هو الا تقرب الى الديانة المحمديه . ولما كد أنتهى من تاليفه حتى بعثتنى نفسى الى ترجمته الى لغتنا العربية الشريفه لكى أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين فى آن واحد

على انى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسلية لى على ما أضعت من وظيفة أو شهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو اقامة الحجج العلمية على أن دين الاسلام ليس بالدين الذى يتناساه ذووه أو يلوى الكشح عنه متبعوه . وانه ليس بالدين الذى تعارضه العلوم العصريه بالحقائق الفلسفيه بل هى مما تزيده تثبيتا وتمكينا وتزيد متبعه ايمانا ويقينا . وانه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة أنصارا أولى قوة ومكانه لا ان يرى منهم اعراضا وابتعادا يدلان الرائى على ما الاسلام برىء منه وبعيد بعد السماء عنه .

قد آن للمسلمين اعراضا عن دوائهم واغضاء على دائهم فلا يكونوا كالأبله الذى يحمل الدرياق الشافى فى ردنه فيغفل عنه ثم يفغر فمه منتظرا أن تمطر عليه سحائب الاوهام من سماء الاحلام غيثا يطهره مما به ويشفيه من أوصابه . أليس بعار على متنورى هذه الامة أن تبقى حقائق دين الله مختبئة فى مكاتبهم فى مطاوى مجلداتها وهم مغرورون بزخارف أفكار البشر مما يسمونه بالنظريات الفلسفيه حالة كون النسبة بين هذه الافكار كلها وبين ما لديهم آيات الحكمه التى أسدلوا عليها أستار

النسيان هى أكبر عما لا يقدر عما بين أفكار الصبيان وبين أفكار حكيم مارس الايام وخبر الانام وعاش مائتى عام . ألا تتوق نفس شرقى متنور الى الوقوف على ذلك السر الاعظم والناموس الاقوم الذى ساد حينا قصيرا على سكان جزيرة العرب على ما كان بهم من شظف ووحشية فأخرجهم من ظلمات الجهالة والرذائل الى أنوار المدنية والفضائل . ما فائدة العلوم اذا لم تحبب الينا معاشر شبان المشرق أن نكتنه هذا السر العجيب والتطور الغريب الذى لو طبقناه على ما لدينا من المعارف المدرسيه لا نستطيع أن ندركه ولو بوجه عام . هل فيما قرأناه من التاريخ ما يدلنا على امكان تطور أمة باسرها وانتقالها من حالة الوحشية الى المدنية فى مدة لا تتجاوز الربع قرن . اللهم لا .

ماهو ذلك التطور المدهش الذى دخلت فيه الامة العربية فى مدة ثلاث وعشرين سنة . هل هو أمر عادى يستطيع الانسان أن يدرك سره ويكتنه أمره بجولة فكره أو القاء نظره . كانت الامة العربية قبل الاسلام كما يعلمها كل انسان منقسمة الى قبائل عديده وفصائل شتى كلها متوارثة الاحقاد والضغائن متأصلة الاحن والدفائن . واقعة فيما بينها فى حروب دمويه وغارات جاهليه . لا وحدة تلم شعثهم ولا جامعة توحد كلمتهم وكانوا واقعين من جهة التدين فى أخس أنواع الوثنيه ومن جهة العادات فى أنكاها ضررا بالحياة المدنيه . فلا قانون يصلح من حالهم ولا قاعدة يبنى عليها ضمان استقبالهم وبالجملة كانوا بمكان من الاختلال والفاقة وسوء التربيه تخطاهم فيه كل الملوك الفاتحين مثل بختنصر وقروش والاسكندر وغيرهم . فماذا كان من أمرهم بعد بعثة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بنحو بضع وعشرين سنة . كان من أمرهم ان توحدت كلمتهم واتحدت وجهتهم ووجد فيهم قانون يضمن تهذيبهم ويكفل رقيهم وتركوا جميع عادات آبائهم التى توارثوها وألفوها حتى كادوا أن يعبدوها وخرجوا من ظلمات الوثنيه الى أنوار العقيدة التوحيديه وقاموا من وسط وهادهم ونجادهم يحملون للخافقين أنوار المدنيه ويؤسسون أركان العدل والانسانيه فى جميع ارجاء الكرة الارضيه

وسادوا

وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتداليه وبالجملة صارت دولتهم دولة العالم بأسره بينما كان غيرهم يهيم فى وديان الجهاله ويضرب فى ليلاء الضلاله .

هذا هو التطور الغريب الذى دخلت فيه أمة العرب فى سنين قلائل بعد أن كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهى كما هى لم تترق عما كانت عليه قيد شبر . هل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل أن هذا الرقى السريع كله حصل بدون قواعد محكمه وأسس متينه . وهل بعد هذا يصح أن يتصور عاقل ان تلك القواعد والأسس تشابه ما لفظه أمثال ارسطو وليكورج وسولون من الحكم البسيطه والقواعد التى لو أصلحت اليوم شيأ أفسدت فى الغد أشياء كثيره . كلا . اللهم ان المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون وعن بدائعه للاهون فهبهم اللهم ميلا الى ترييض نفوسهم فى حقائق دينك السرمدى وقانونك الأبدى وهب اللهم بصائرهم قوة تمتعهم من دينهم بما تمتعت به آباؤهم الأقدمين انك رحيم بالمؤمنين .

وهبنى اللهم من الثبات والجلد فى هذا الموقف الحرج ما يسد خلة عجزى وقصورى من الخوض فى مثل هذا العباب العظيم حتى أؤدى لابناء وطنى خدمة هى أمس بحياتهم من كل ما عداها وأصلح لرقيهم من كل قاعدة سواها . واجعل اللهم عملى هذا خالصا لوجهك الكريم نافعا لامة نبيك الفخيم انك واسع عليم . آمين .

﴿ مقدمات ﴾

قد رأينا أن نمهد الكلام على الاسلام بمقدمات ضرورية جدا تنشئ للمطالع فكرة عامة على حالة الانسان وتكاليف الحياة ونواميس الرقى والتأخر الذى تتجاذبه وطبيعة النظامات التى تنازعت السلطة على الانسان من قديم الزمان الى

الآن والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين وغير ذلك حتى لا يكون مطالع كتابنا محتاجا فى فهم مانرمى اليه الى بحث ولا تنقير ويستطيع أن يرى بعينه بطريقة حسيه أن الاسلام روح المدنية الحقه وأن لا مدنية الا به أو ببعض نصوصه .

هذا وليغفر لى القراء الكرام كثرة استشهادى باقوال علماء أوروبا فانى لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين بل قصدى أن أبرهن ان كل النواميس المدنيه التى سادت على أوروبا فى القرون الأخيرة فنقلتها من الظلمة الى النور ليست بالنسبة لنواميس الاسلام الا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر . فاقول والله المستعان

﴿ الانسان ﴾

ما هو الانسان . هل هو ذلك الجسم المادى الذى يتناوبه التحليل والتركيب فينمو ويقوى ثم لما يدركه الضعف والهرم يموت ويدفن فيستحيل الى تراب تدوسه الاقدام . ان كان كذلك فليس هو الا حيوانا بسيطا يفضله الاسد بقوته والفيل بعظم جثته والقرد بعدوه وسرعة حركته ولما كان له من الأهمية فى هذا الوجود ما يدلنا عليه ماضيه وحاضره . أما وأبيك لو كان الظاهر عنوان الباطن فى كل شئ لكان شأن الانسان فى هذه الطبيعة الكثيرة العوامل شأن الريشة الخفيفة بين تيارات الاعاصير الشديدة يدفعه تيار ويرده آخر حتى ينتهى لوجوده على أسوء ما ينتهى اليه وجود الضعيف مع مغالبيه الاقوياء . كلا ان فى الامر لسرا مكنونا ورمزا مصونا كم فى العلم به من فائدة تهدينا فى الاستقبال وفى الجرى عليها ضمانة لحسن المآل .

أدرس الانسان من مبدأه ثم انظر اليه فى وقتنا الحاضر تر عجبا يذهب بالعقول وسرا تعجز عن اكتناهه الفحول . ترى آيات تدهش الافكار وتستوقف

الانظار . ترى ماذا . ترى كائنا عارى الجسم لين البشره رقيق الحاشيه ضعيف الساعد عديم السلاح ألقى به فى هيجاء هذه الحياة وحيدا فريدا وقذف به فى تيار هذا الوجود طريدا شريدا يرى بعينيه الجبال الشم فيفرق من خيالها والغابات الفيحاء فيذهل من تقلب ظلالها والقبة الزرقاء بنجومها الزهراء فتهيمه سعتها ورفعتها . ويسمع زئير الضياغم فى الغابات فيكاد يصعق منه فرقا أو يتميز رهبا وهو بين تلك الدهشة والوحشة يوخزه الحر بلفحه والبرد بنفحه ويؤلمه الجوع بحدته والعطش بشدته . هذا حال الانسان فى مبدإ أمره فماذا ترى من حاله الآن . ترى ان هذا الكائن الضعيف قد قاوم كل عوارض الطبيعة المسلطة عليه بجلاد وثبات مدهشين وصارعها على قوتها وبطشها مصارعة البطل المغوار بقوى ابس فى زنده مستقرها وجلاد ليس فى جسمه مركزه حتى تغلب عليها ولم يكتف بذلك بل أسرها أسرا واستخدمها الأمانيه وأماليه كما يستخدم الملك المنصور اسراء الحروب . ترى ذلك الكائن على ما به من لين وضعف قد أظهر من ذلك اللين صلابة واجهت الجبال الشم فنسفتها نسفا وعدت على الصخور فسحقتها سحقا وتوجهت للحديد المتين فأذابته ذوبا وأبدى من ذلك الضعف قوة اقتادت القساور صاغرة بين يديه فتراها تخضع اليه وتلعب عند قدميه لتقر عينيه .

هل بعد هذا التدبر العلمى يقال ان الانسان هو ذلك الجسم المادى الضعيف . كلا بل لابد أن يكون ذلك الجسم الطينى غلافا لسر مكنون ان غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره . وذلك السر هو معنى الانسانيه وواهب الميزة للانسان على غيره من أصناف الحيوان . نعم هذه بديهة لاتحتاج الى اثبات ولكن ماهى تلك المعنى الغريبة التى بسكناها فى ذلك الجسم المادى جعلته ملكا لجميع الكائنات الارضيه وسلطانا يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه .

لو كانت تلك المعنى الانسانيه مما تقع تحت سلطة المشاعر وتنضوى تحت قواعد المحسوسات لسهل على الباحث درسها درسا مدقق . ثم لو كانت هى من طبيعة معنى الحيوانيه محدودة الغايات والانفعالات لكان المعانى لا كتناه أسرارها

لايكلف نفسه من المشاق ما يربو على ما يبذله الباحثون عن طباع النمل أو
الميكروبات * ولكن كان أمرها بخلاف ذلك على خط مستقيم . فانظر الى
الانسان نظرة من تره جامعا للمتناقضات جمعا يصعب معه تحديد خصيصة من
خصائصه بوجه التحقيق شاملا للمتعاكسات شمولا تضيق عن حصر آثارها
قاعدة كل تدقيق كأن هذه المعنى الانسانية بحر لا يدرك غوره مسبار العقول
ولا تنتهى الى سواحله خطرات الافكار البعيدة المرامى . اذا نظرت الى الانسان
من حيثية أوصافه الفطرية فيه فلا تستطيع أن تنتهى الى رابط يربطها ولا
ناموس يضمها . فبينما ترى رجلا قد عرف قدر الاعتدال وأدرك سر الكمال
فقاس أمياله على مقياس الروية والتدبر ووزن أعماله بقسطاس العدل والتوسط
ترى عن يمينه رجلا ثانيا سأم الدنيا سآمة لم ير معها مطمعا فى لذة ولا مطمحا فى ثروة
وكره اليه العمران كراهة حببت اليه سكنى قذفات الجبال وحيدا فقيرا لا يملك
فتيلا ولا نقيرا وأخذ يناجى ربه أن يزيده كراهة فى دنياه وأن يكافئه عن ذلك
برضاه * ثم ترى عن يسار ذلك المعتدل رجلا ثالثا سحرت الدنيا لبه سحرا أعماه
عن رؤية الفارق بين المحاسن والمقابح فأطلق لنفسه عنان الطيش وافتكها من
قيود العادات والتقاليد وأخذ يميل مع الشهوات حيث تميل ويتقلب مع الاهواء حيث
يتقلب * وبينما ترى رجلا قد نزل عن رتبة الحيوانات جهلا وغباوة حتى كاد أن
يساوى الصخر جمودا وخمودا * ترى بازائه عالما غزير المادة واسع الاطلاع منهوما
بكشف الاستار عن وجوه الاسرار لا يرى اللذة الا نظرية يؤسسها أو ظاهرة
طبيعية يدركها * وبينما ترى شخصا استحوذ عليه حب الحياة حتى أورده موارد
الجبن المخجل يظن الخيال طالبا يطلبه أو عفريتا يتابعه * ترى تجاهه شجاعا يطربه
وقع البيض على الخوذ ودوى المدافع فى جدران الحصون ويروقه نظر دماء
الاقران تسيل على الارض كالارجوان . قل لى بعيشك هل يمكن لمن نظر الى
حالة الانسان من حيث قبوله لسائر الاوصاف الممكنة أن يدعى حصرها فى قاعدة
أو ضمها فى رابطة واحدة

ليس

ليس لاميال الانسان حد فيقف عنده بل كلما وصل الى غاية تاق الى أبعد منها ووجد من نفسه المكنة على بلوغها والقدرة على ادراكها حتى اذا نالها كان فرحه بحوزها باعثاً له على الاستزادة منها وصغر فى عينه ما كان فيه من قبل

مضى زمن اتهم فيه مكتشف أمريكا . ومخترع التلغراف والآلة البخارية بالجنون لظن الناس استحالة ما كانوا يرمون به فى الآذان همسا وجاء زمن يقول فيه علماؤه انه سيأتى وقت يكون الفرق فيه بيننا و بين ابنائه كالفرق بيننا نحن و بين اخس الحيوانات

هل وقف الطماح بالانسان عند هذا الحد المدهش . كلا ان الطمع الفكرى بلغ عند الانسان مبلغا نظر به الى حالة العلم الآن فلم ير فيه شيء فيه وصغر له الطموح عظم ما نال عقب تلك الجهالة الاولى فنطق بلسان احد علماء امريكا قائلا « انما غمتازعن اسلافنا فى العلم بكوننا علمنا اننا جهلاء . أما هم فكانوا يعتقدون انهم يعلمون شيأ » ليت شعرى ما هذه المعنى الانسانية التى تشعر بعظمتها و جلالة قدرها الدرجة لا تعدّ ما هى فيه الآن الا جهالة ظلماء فهى تأنف أن تغتبط بما وصلت اليه من سائر الاسرار وترى ان امامها سماغاية لا تحدها الاوهام ولا تصل اليها مرامى الافكار « امامنا فلا يسعنا بعد هذا الامعان الا أن نحكم عن بينة بأن الفارق بين الانسان والحيوان . ليس هو النطق كما قال أرسطو ولا هو التفكر بالقوة كما مال اليه فلاسفة العرب ولا هو التدين كما ذهب اليه المسيو كاترفاج بل هو قبول الانسان للترقى العقلى والاخلاقى الى ما لا نهاية له ووقوف الحيوان فى درجة لا يتعداها فيكون نسبة الحيوان الى الانسان كنسبة الادراك المحصور الى غير المحصور وشتان ما بين طر فى هذه النسبة

ان كان لابد من الاستشهاد بقول عالم اوربى فى مثل هذه البداهة فاليك ما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارفه الكبيرة بعد ان تكلم على رقى الانسان ما نصه (ان من التهور المشين وضع حد لرقى الانسان) وقال المسيو رينان الشهير فى كتابه تاريخ الاديان (اذا امعنت فى حال الانسان ووجدته وقتا من الاوقات يبذل وسعه و يستنفد قواه

لكى يتوصل الى ادراك السبب الذى لانهاية لحدود سلطانه ولكى يعلو على هذا العالم المادى أفليس هذا دليل محسوس على أنه بسمو محتده وبحسن حظه ممتاز عن هذه الاشياء المادية المحدودة . لاشك ان مشاهدة هذا الجهد من النفس لكى ترقى الى معارج السموات العلا تبعث فى المشاهد الميل الى احترام النوع الانسانى الذى يجدر به هو نفسه ان يفتخر بعظمته افتخارا)

كما قضى الله للنوع الانسانى ان يكون اهلا لاعتلاء درجات كل ما يتصور من الفضائل كذلك حكم عليه بان يكون قابلا للنزول الى أخس دركات الرذائل . وفى درس تاريخ الانسان اكبر عبرة لمن يريد أن يتفكر

خلق الانسان على تمام الجهل بالكون الذى قذف به فيه بخلاف الحيوان فان الخالق جل شأنه وهبه من الالهام أكبر مرشد له لنوال ما يكفل له حياته ويحفظ لنوعه بقاءه فتراه لا ينساق الى الافراط ولا التفريط لدرجة تودى به ونشأ مطبوعا على الاعمال التى تهيئ له راحة حياته من بناء مسكن واعداد محل لائق لوضع صغاره فيه الى غير ذلك من الامور التى يندهش منها الانسان اذا عنى بدرس علم الحيوان . اما الانسان فقد جرد من كل هذه الخصائص بالمرة وعوض عنها مزية الحرية فى التصرف بالقوة الفكرية تصرفا غير محجور . وجد الانسان وهو شاعر على ما به من ضعف وعجز بانه مليك كل الكائنات الارضية وزهرة هذه العوالم الكونية فلم يثنه ضعفه وفاقته عن التطلع للنقطة الرفيعة التى اعدت له والتى يرى مثالها فى وجدانيته لألآ آنا ثم يختفى آنا لينشأ له بين الرجاء واليأس باعث قوى على اعمال مواهبه واجهادها والجرى وراء تلك المنصة العلياء التى تحس بها نفسه احساسا سريا بدون علم عاهيتها ولا كيفيتها . اختلاف أفراد النوع الانسانى على حسب الامزجة والامكنة والازمنة فى ماهية أمنية النفس البشرية وهم كل منهم على قدر ما خولته المكنه وامكنته الفرصة بالبحث عن تلك الرغيبة الروحية فظنها بعضهم فى الملاذ البدنية والشهوات البهيمية فدأبوا على اختراع انواع الزينة ومهيآت الطرب فنشأت من ذلك الصنائع الجميلة على

اختلاف

اختلاف انواعها وتباين اصنافها مع ما استلزمته فى اثناء البحث عليها من قواعد الصنائع النافعة والاعمال المفيدة وزعمها بعضهم فى علو الكلمة وبعد الصيت فجد فى تدويخ البلاد وتذليل العباد فنشأت من ذلك الحروب والغارات مع ما استلزمته من معارف ومعلومات ومن صعود لبعض الامم وهبوط للبعض الآخر مماله ارتباط قوى بتدرج الشعوب فى مدارج التقدم والحضارة . وحسبها غيرهم فى ترييض النفوس وتهذيب الطباع وحرث القوة الفكرية واستثمارها فنشأت من ذلك علوم الاخلاق والابحاث العلمية والعمليه والمسائل الفلسفيه مما كان له أثر عجيب فى تنمية المادة العقليـة وتوسيع نطاق القوة الفكرية وعلى هذا النسق من اختلاف المشارب والوجهات فى البحث عن السعادة النفسيه المتمناه تم للانسان من الرقى ما بلغه الآن . وسيستمر هذا الانفعال النفسى وراء هذه السعادة المرجوة حتى يتم الابداع الذى أراده الله أن يتم على يد هذا النوع الانسانى .

فى اثناء هذا التدافع المدهش كان الخالق الحكيم جل شأنه يرسل رجالا هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيوحى اليهم الطريقة الملائمة لعصورهم والتى لو انتهجها الانسان لوصل الى سعادته من أقرب الطرق اليها . فكان يتبعهم من الناس من قدر الله أن يكون على أيديهم نقل النوع الانسانى من حالة الى حالة أرقى منها فيستمرون عاملين بما أخذوه من نبى زمانهم برهة قصيره ثم يعودون الى تدافعهم الأول بعد أن يحرفوا نصوص كتبهم تحريفا يجعلها غير صالحة لقيادتهم وضبط أهوائهم ولا يزالون كذلك حتى تهيئهم نواميس الحياة الى صعود درجة أخرى من سلم المدنيه والترقى فيرسل الله تعالى اليهم رسولا من أنفسهم يكون فى مقدمتهم عند اعتلائهم تلك الدرجة الجديدة . وهكذا كان شأن الأمم كافة من التجالد والتدافع حتى تم نمو العقل الانسانى وصار مقتدرا على تمييز الغث من السمين فارسل الله سيد الوجود وخاتم الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخالدة والدين الأبدى . ولا يهولنك ما ترى من آثار التجالد الفكرى والتضارب العقلى بين سكان هذه

الفكرة ولا نستنتجن من ذلك قرب ظهور نبي آخر فان كل ماتراه حاصلا أمامك من هذه الجلبة والصياح والتجاذب ليس هو الا اعدادا لابناء القرون الحاضرة والمستقبلة الى فهم حقيقة الاسلام وادراك أسراره . نعم (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد)

﴿ تكاليف الحياة ﴾

الحياة وما أدراك ما الحياة حرب عوان وأهوال تشيب لها الولدان وتخضع لها الرؤس ذوات التيجان يتساوى فيها المليك والمملوك والسرى والصعلوك والجهال والعلماء والأغبياء والحكماء بل هى مورد تتزاحم حوله النفوس ولا تفوز بحسوة منه الا بعد أن تتصادم العظائم وتتجشم الدواهى الدواهم وهى حسوة ممزوجة بالاكدار مشوبة بالاوضار يغص بها حاسيها غصة تعجز الطب والاطباء وتتعاصى على كل دواء .

حياة الانسان وما أدراك ما حياة الانسان مدة قصيرة الأمد كثيرة الهم والنكد يكون الانسان فيها هدفا لسهام الحوادث وعرضة لنبال الكوارث لا تغنى عنه الجنن الواقيه ولا الدروع المضاعفه ولا الحصون الشامخه ولا البروج الشاهقه . سهام ونبال تلازمه من يوم ميلاده ملازمة العرض للجوهر فيشب الانسان ويشب وهى لا تفتر عن وخزه ولا تقصر عن طعنه حتى يود الانسان أن لو كان من بعض الحيوان ولم يعن لعلو مكانته بما تشيب لهوله نواصى الاجيال ولا تستطيع أن تحتمله شوامخ الجبال . كلا . (انا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان) .

لست أيها الانسان ملكا فتكون بمعزل عن دواعى الشهوات ومنغصاتها ولست حيوانا فيضعف فيك الشعور بتأثيرات الحياة وويلاتها بل قضى خالقك جل

شأنه أن تكون بين هاتين الرتبتين فى منزلة لو حفظت لنفسك فيها حق خدمتها لخدمتك الاملاك ورفعتك على الافلاك ولو قصرت فى واجب نفسك ورضخت لسلطان البشرية فيك لنزلت الى منزلة من الضعة يعافها أخس الحيوانات ويأنف عما أنت فيه من السوآت هذا حظك قد خطه بارئ النسم من القدم وأودع فيك من الاستعداد والقابلية ما يسمو بك الى المحل الذى يليق بك من الكمال والرفعة . وأسكن فؤادك عقلا يضئ عليك حوالك الاحوال وينفكك من أغلال الأهوال لو أحسنت استشارته وأجريت اشارته ولم يخلق ما تراه أمامك من المصاعب والمصائب لتعذيبك على غير جدوى أو لكى يسمع عويلك من البلوى بل تذكرة تقيلك من عثرة وتحميك من كبوة وتزعك من هلكه (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) . نعم ليس ما تراه أمام عينيك من الاهوال أو ما يعترض أمانيك من تقلبات الاحوال عقبات أمام سعادتك أو موانع دون أمنيتك فلا تكن كالطفل العاصى يزعه أبوه عن البطالة فيظنه قاسيا عليه غير حان اليه كلا (لله أرأف بعباده من هذا العصفور على فرخه) حديث شريف

سبق أن بينا فى مقالنا السابق أن الانسان مستعد لأن يرقى أوج الملكوت الاعلى ومتأهل لأن يتسنم هاته الرتب القصوى عما لا يحده وصف الواصفين أو تخيلات الشعراء المداحين فاذا تقرر لديك ذلك فما هى الوسائل التى يجب أن ترفعك من معهد هذا الطين الميت الى محتد ذلك النور الحى أتريد أن تنزل اليك ملائكة من السماء فيقودونك بيدك الى ما أعدلك من مقاوم الشرف ومنازل الرفعة ان قلت نعم فما الفائدة اذن من ايداع الخالق فيك هذه المنح العلوية العظمى عما لو التفت اليها قليلا ولو قدر التفاتك الى نقش الدينار ورسمه لعلمت أن فى فؤادك كنزا لو انفقت عمرك فى تدبر ذخائره لما وصلت الى عشر عشيرها . كنز يصغر اليك شأن الذهب الابريز والجوهر العزيز ويبعثك قسرا عنك لالتماس الرتبة التى تليق بعظمتك من هذا الوجود ويريك ان سفاسف الامور ودنايا الاعمال ليس مما يجوز لمثلك أن يعيرها

فكرا أو يمر بها مرا (وعزتي وجلالي ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع) حديث قدسي

ايه أيها الانسان انك عن نفسك لمحجوب ومن أشرف مزاياك لمسلوب ليس مثلك من يهتز لخرافات الشعراء فيذم معهم الزمان والمكان ويتباكى على ما سيكون وما قد كان ليس مثلك من يستميت لكسره أو يقتل صديقه لأجل ابره أو يبيع رداءه في سبيل الخمره ماهذه الغفلة ماهذه السكره بل ماهذا الموت أضعت أيامك في تخيل المصائب والخشية من النوائب وصرفت همك في أوهام يستنكفها الحيوان ويمجها العرفان هل يليق بمن يحصر الكون بكواكبه والعالم بعجائبه في فكره وهو جالس مع صاحبه أن يتدنى الى درجة من الاستكانة والمهانة يضيع بها تلك المواهب العظمى والمنح الكبرى لخزية يفعلها أوغيبة يتلمظ بها حتى اذا جاءت له نتائج تمامله وابتدأت أن توقظه من سباته ارتعدت فرائصه رعبا وارتجت مفاصله رهبا وأخذ ينادي وامصيبتاه وامصيبتاه ثم يأخذ يبكي بكاء الثكلى ويذرف الدموع الحرى مغمضا عينيه عن النظر وبصيرته عن تبين العبر فيضيع بجهله مزية ما يرفعه الى محتده الاعلى ومركزه الاسمى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)

ان الذي تسميه مصائب أيها الانسان ليس هو الا يد الجبار الاعلى تستلفتك الى الغاية التي خلقت لأجلها وتبعثك من جدث الجود الذي أوقعك فيه تماديك في الغي المزري مع ما انطويت عليه من الغرائز الشريفة والنحائز المنيفة نعم ان الذي خلقك من الطين الاصم وأراد أن يعلو بك الى أعلى مراكز الكمال سلط عليك عوامل ثلاثا لو تبصرت في مصاعبها وتدبرت في أسبابها ومسبباتها لرأيت طريق السعادة التي تنشدها وتموت بحسرة دونها هو بين يديك وأمام عينيك وما عليك الا أن تجري على سننها القويم وصراطها المستقيم لتصل الى غرضك العظيم

ماهي تلك العوامل الثلاث المهمة هي الطبيعة ونفس الانسان وبنو نوعه

اما الطبيعة فهى محتد جسم الانسان بها ترتبط سعادته المادية ومنها ينبوع راحته الحسية . قذف الانسان من يوم خلق الى هذا العالم المادى فتلقاه بنواميسه الكثيرة وعوارضه الشديدة حالة كونه كما وصفه العلامة لبنيه عارى الجسم و بدون سلاح فوخزته الشمس بحرارتها والارض برطوبتها والسماء بامطارها والصحارى بسمومها وأعاصيرها والوحوش بانيابها واظفارها فصار الانسان بين هذه العوامل هدفا للسهام لامجن يقيه منها ولا وسيلة تبعده عنها فلو كان كغيره من الحيوانات محدود القوى الادراكية لما أمكنه ان يعيش طرفة عين ولكن الله جل جلاله قد قذف به الى هذه الاهوال بعد أن منحه من المواهب ما يستطيع بها ان يتغلب على الطبيعة ويأسرها فلم تفل عزيمته ولم تثبط همته بل قاتلها بسلاح فكره الحديد وابتكر من الصنائع الأولية ما يحميه منها وقتاما ولم يزل يجدو يجتهد فى تحسين تلك الطرق الواقية حتى ارتقى شأنه شيأفشيأ فصار يتمكن من بناء البيوتات بعد سكنى المغارات ويحرث الأرض ليستخرج خيراتها بعد أن كان يتغذى بجذور الأشجار وأوراقها وهكذا . ولكن الطبيعة لم تغفل عنه طرفة عين بتقدير العزيز العليم كى لاتركد همته وتسكن حركته فصار كلما اتقن عملا عدت الطبيعة عليه فيلتجئ الى تحسينه ولم يزل ذلك التدافع بيننا وبين الطبيعة الى اليوم

كان من نتايج هذه الحرب العوان ارتقاء الانسان ماديا للدرجة التى نرى بها لندن وباريس من عجائب الصناعات وغرائب المكتشفات مما لوحدث به الشرقى لرمى محدثه بالجنون لعدم تصوره ما يقول . هذا الارتقاء يستلزم بالطبع ارتقاء أدبيا عظيما لانه لا يتأتى الا باعمال القوة العقلية واجهادها وهذه القوة هى كما لا يخفى محتد كل الفضائل البشرية هذا فضلا عما تستلزمه سهولة الحياة من قلة الجرائم الفظيعة كالقتل والسطو وغير ذلك

فانظر بابيك الى ما كان يسميه آباؤنا مصائب وجوائح كيف بعث الانسان الى الارتقاء وحسن الحال وجذبه رغم أنفه من طور البهيميه الى طور الانسانيه هل بعد هذا يصح أن نذم تلك المصائب ونتبرم منها بعد علمنا بانها السائق

الوحيد للفكرة الانسانيه الى البحث عن أسباب السعادة والرفاهيه . أما يجب علينا بعد هذا أن لانجعل جزعنا من المصائب الطبيعية غشاء كثيفا بيننا وبين استنباط الطرق الى تخفيف وطأتها أو استئصالها مرة واحدة . فاذا كان في مكنة الفكرة البشريه أن تخترع آلة تجتذب بها الصواعق صافرة وتلقي بها أسفل سافلين . فكيف لا يكون في مكنتها أن تبتكر طريقة بسيطة تخفف من ويلات دودة القطن التي يقف فلاحنا أمامها صاغرا يضرب صدره ويعزق نفسه ان الأمم الاوربيه رزقت حسن التبصر في جوائح الطبيعة فتراهم يتربصون لاحداثها بالمرصاد فكلما ألم بهم حادث هبوا يبحثون عن طريقة لازالته أو تقليل خطارته ولا ينامون عن مشروعهم حتى يحققوه علما منهم بأن في الفكرة الانسانيه من الاساليب ما يضمن حياة مستقبلهم كما ضمن حياة ماضيهم . هذا هو سبب من أسباب رقيهم المدهش الذي قاموا يسيطرون به على الشرق سيطرة الرفيع على الوضيع (فما لنا عن التذكرة معرضون)

أما العامل النفساني على الرقي الانساني فهو من أقوى العوامل وأكثرها تأثيرا ولا تأثير له على سابقه الا في كونه معنويا . يشعر كل انسان في نفسه بأن وجدانه ميدان فسيح لشهوات تتوزعه وأميال تتنازعه وآمال تتقسمه مما لا يستطيع اماتتها ولا ابطال تأثيرها عليه مهما بذل من المجهودات في ذلك السبيل . ليست تلك الشهوات مما تنصاع لقوانين المحسوسات حتى كان يستطاع وزنها بقسطاس الاعتدال ولا هاتيك الأميال مما تقبل التحديد حتى كان يرى الانسان بعينه النقطة التي هو مسوق اليها قسرا ولا تلك الآمال مما ترضخ لأحكام القنوع حتى كان يتسنى له أن يوقفها عند نقطة مخصوصة بل قضى الحكيم المختار أن تنطلق هذه العوامل المعنويه من كل قيد وأن تتجاوز كل حد وأن تشذ عن كل رابطه حتى صارت بما أودعت من روح الحركة والتأثير كأنها تيارات متعاكسة تتصادم في فؤاد الانسان تصادما يهوله مرآه ويرعبه منظره ولو كان هو نفسه محتدها ومستقرها

أنظر الى ذلك الرجل الرث الهيئة الخلق السربال الجالس فى ظل تلك الدوحه أتظن أن سكونه الظاهرى دليل على سكونه الباطنى أو أن حالته من الفاقة نهنهت وجدانه عن تلك المطامح السريه والمطامع الضميريه؟ كلا ان حاله ذلك لم يقلل فيه من تلك الانفعالات النفسيه عما هى عليه عند أكبر ملك جالس على أسمى اريكه لأمة متمدنه

وجد هذا الانسان الضعيف على سطح هذه الكرة الارضيه وهو كما هو شئ غير محدود فى جسم محدود أو بحر لا نهاية اسواحله فى فؤاد لا يزيد عن الكف مقاسا فلم يستطع أن يطمئن الى شئ من الاشياء المحدودة أو يركن الى كائن من الكائنات المشهودة الاريثما يتحقق أن ذلك الشئ ليس مما يصلح أن يكون سفينة له يقطع على ظهرها عباب ذلك البحر الزاخر الذى يسمع دوى أمواجه داخل فؤاده . نعم بذل الانسان وسعه من القدم فى تحسس مالا تأنس نفسه الابه فأم كل طريق وقاوم كل تيار وسلك كل سهل واقتحم كل حزن ونزل كل غور وصعد كل نجد وتوقل كل رعن وهو بين كل هذه الهمم الشديدة يصادف مانعا فيرده أو عقبة فتصده فيزيد خبرة بماهية السائق له والسوق اليه فيصلح من خطئه ويقلل من غلطه فيترفع قليلا عما كان عليه فى سابق بحثه فتقابله الجوايح وتصادمه البوائق فيعلم ان غرضه أسمى من ذلك وهكذا حصل حتى تم له ان ينتقل من دور التسفل فى البحث الى دور الاستعلاء فيه فصار الآن كلما طالبته النفس برغيبتها ألقى بنظره الى السماء بعد ان كان فى السابق يلقى به الى الارض .

هذا العامل النفسى له فضل عظيم فى حفظ الانسان من الرضوخ لمؤثرات البهيمية فيه فهم يقع فى الوحشية التى لو اتصف بها لكان كائنا يتبرأ منه ويأنف ان ينتسب الى نوعه وهذا العامل نفسه هو الباعث الى تأليف علوم الاخلاق والبحث فى الالهيات والنفسيات المحرض على الجد فى علوم الحكمة مما كان ولم يزل له أثر عظيم فى تحسين حالة النوع الانسانى . أما العامل النوعى فهو

نتيجة العامل السابق ولم نسمه عاملا قائما بذاته الا لما انتجه من الانقلابات الشديدة في النوع البشري وفي الفرد الواحد .
قلنا أكثر من مرة ان الانسان ممتاز عن سائر الكائنات بانطلاق أمياله وشهواته عن القيود ومجاوزة انفعالاته لكل مايتصور من الحدود بخلاف الحيوانات فانها مطبوعة على الانصياع لنواميس ثابته وقواعد عامه لا تتعداها ولن تستطيع ذلك . اذا علمت هذا فقل لي بعيشك ما كان يستحيل اليه حال الانسان مع انطلاق خصائصه عن القيود لو لم يصادف في حياته أمورا تجبره رغم أنفه الى تحديد نقطة الاعتدال فيها وايقاف أمياله عند تخوم التوسط . أماترى معنا انه كان يتلاشى وجوده أو يبقى ولكن مجذوبا مع تيار واحد يحسب انه سيوصله الى غاية يقف عندها و يتملى بسعادته فيها فيخونه الحسبان فيظل مقذوفا الى حيث يلاقى حتفه على أسوا حاله .
اذا اعتقد رجل ان السعادة في الغنى وأنواعه غير محدودة في وجدانه ونهاياته غير مرتسمة في جنانه فماذا يكون حاله في هذا السبيل المميت للعواطف البشرية اذا لم يصادف أمامه مانعا يصده ليقف قليلا فيرجع الى نفسه رجعة يفهم بها انه لو عاش ألف عام دائبا على سلوك سبيل الثروة لما وصل الى غاية مما يؤمله وانه لو صار قارون زمانه مالا فلن يكون أسعد أهله حالا .
نعم ان الذي خلق الانسان وأطلق مداركه من كل قيد خلق بازائها موانع تصدها لتزعها عن الافراط كما وضع وراءه دوافع تصيح به لتردعه عن التفريط . فاما تلك البواعث الدافعة له الى الامام فقد درسناها في الفصلين السابقين . وأما الموانع التي تعترضه لتجبره الى الاعتدال في مطالبه فاهمها مقاومة بني نوعه ومزاحمتهم له في كل رغائبه . هذه المزاحمة تنقسم الى قسمين عظيمين أولهما مزاحمة افراد الجمعية التي يعد الرجل فردا منها والثانية مزاحمة الجمعيات بعضها البعض في التسابق الى مايقيم كيانها من أمور هذه الحياة . هذان القسمان من التزاحم المعبر عنهما بتنازع البقاء هما السببان الرئيسان اللذان علما الانسان رغم أنفه ثلاثة أمور عظيمه

جدا هي نظام حياة الأمم ومساكها . أولها عدم الغفلة عن الحق لأن الاهمال فيه على حسب قوانين الحياة مسقط له اسقاطا كليا . ثانيهما معرفة قواعد العدل لأن الانسان بالجور يجر اليه أضغان أمثاله فتسوء حالته ويحرم من سائر حقوقه . ثالثها احترام النوع الانساني باكمله . هذه الثلاثة أمور كما هي قوام أعمال الافراد هي أيضا نظام الامم العظيمة المتمتعة بنعمة الاستقلال فان الامة المستقلة اذا أهملت مجاراة جاراتها سبقتها الى مطالبها وحرمتها من مقومات حياتها ولا يعد هذا ظلما منهن بل تعتبر هي الظالمة الاثيمة باهمالها استعمال خصائصها المودعة فيها ومن يتأمل في حالة الجمعيات البشرية المختلفة ير العجب العجاب من آيات المسابقة . هذا من حيثية الامر الاول . وأما الامر الثاني وهو العدل فان من أقل خصائصه في الجمعية حدوث الاطمئنان المتبادل على الحق والعرض وعدم الرهبة من العدوان عليهما جريا مع الاهواء ولا يخفى ما ينبني على هذا الاطمئنان المتبادل من التماسك بين سائر الافراد والتضافر فيما بينهم على السعي الى تحقيق غرضهم المشترك وهو سعادة الجمعية . ومن يرد برهانا محسوسا على حسن نتائج العدل فليتدبر في أحوال الجمعيات الحاضرة والغابرة ليغني عن كثير من التطويل . وأما عاطفة احترام سائر أفراد النوع الانساني فانها ما انبثت في أمة حميه الاوقات من حدة الاسلحة الموجهة اليها بتأثير تنازع البقاء وكسرت من نصال مجاوريها الطامعين فيها وأماتت من عزامهم وشرتهم لدرجة تطمئن به على نفسها أكثر من اطمئنانها بقوتها وعظمتها .

لنرجع الى ما كنا بصدده فنقول ان هذه الثلاث عوامل الرئيسه (الطبيعه ونفس الانسان وبنونوعه) مع النواميس الكثيرة الثانويه التي تستلزمها هي بواعث الرقي الانساني قدرها الخالق جل شأنه تقديرا لأجل ان ترفع الانسان رغما عنه من درجة الوحشية الى درجة المدنيه أو السعادة الانسانيه وهي عينها موضوع بحث الباحثين وغرض العلماء المحققين من منذ آلاف من السنين الى هذا الحين

﴿ الدين والعلم ﴾

ان المنابذة بين رجال الدين ورجال العلم ليست بقريبة العهد فان التاريخ يدلنا انه من منذ أزمان بعيدة جدا كانت المشاحنات والمشاغب قائمة بين الطرفين فى أغلب الامم الا ان العصور المتقدمة كانت تمتاز عن عصرنا الحاضر فى قساوة تلك المشاكل وحراتها فان كثيرا من فلاسفة الامم حكم عليهم بالاعدام بالسم أو الحديد أو النيران لمحض كونهم قاموا ينيرون عقول مواطنيهم من الاوهام التى تحط بشأن العقل وتطفئ من نوره أما فى عصرنا الحاضر فان العلم على ما قاله المسيو برتلو (أحد نظار خارجية فرنسا وأكبر علمائها الكيماويين) قد نال حريته المطلقة وصار لا يخشى سيطرة الدين عليه . لقد صدق المسيو برتلو فانا نتلو مؤلفات القوم العلميه فلا نرى الا طعنا على الاديان وتنديدا بها يدلنا على ان القوم قد مرقوا منها مروق السهم من الرمية ولم يكفهم ذلك بل أخذوا ينذرونها بالاضمحلال العاجل لعدم انطباقها على النواميس المرقية للانسانية ولا على القواعد العلمية على زعمهم .

ألف المسيو بنجامن كونستان كتابا سماه (الدين وينبوعه واشكاله وترقيه) بحث فيه عن العلل التى أنهكت جسم الجمعيات البشريه من جراء الاعتقادات الباطلة ثم حكم بأن مداواة هذه العلل لا تتأتى الا بحرية الضمير وحرية الاعتقاد والحرية الشخصيه وبالاختصار كل الحريات الضروريه ثم قال (بهذه الطريقه تنتقى الأديان عن أدرانها ولكنا لا نخال ان ذلك يتحقق مطلقا لاعتقادنا انها لن تترك شيأ من أسسها . ولكن حيث ان هذه الأسس تناقض العلم وتعارضه فيكون من المقرر الثابت اضمحلال الديانات وزوالها) . نحن نعجب للغاية من كون مثل هذا العالم الشهير يحكم على سائر الديانات بدون استثناء بالاضمحلال والزوال حالة كونه لم يدرسها كلها طبعا لانه لو درس الاسلام ولو درسا سطحيا لتحقق قبل كل شئ انه ليس فيه أسس تناقض العلم كما يتهم به سائرها . ولكنا فى هذه المقالة سنقتصر

على

على ايراد أشد المطاعن على الاديان ونقط الضعف فيها نقلاً عن أشهر علماء أوروبا ليقف قارئنا على اتجاه الافكار الأوروبية العلميه وليتحقق بعد أن نورد عليه أسس الاسلام انه هو حقيقة أمنية النفوس وحظية الارواح ·

قلنا ان المسيو كونستان قد أنذر سائر الاديان بالزوال والآن نقول انه عال ذلك تعليلاً فلسفيا فقال (ان كل قاعدة مهما كانت نافعة فى الحال فلا بد ان تكون محتوية على جرثومة تعارض الرقى فى الاستقبال · لان تلك القاعده تأخذ بطول المكث شكلاً عديم الحراك يأبى على العقل البشرى اتباعه فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتطهره · اذا حصل ذلك ينفصل فى الحال الاحساس الدينى عن تلك القاعدة المتحجرة ويطلب سواها من القواعد التى لا تجرحه ولا تحرجه ولا يزال يضطرب حتى يصادفها)

درس القوم الانسان درساً مدققاً واهتدوا الى الطريق الذى يجب ان يسلكه لكى يصل الى سعادته وعلموا انه لن يستطيع أن يلعب الدور المهم الذى اعدته له العناية الالهية الا باستعمال سائر خصائصه ومواهبه الممنوحة له وعدم قتل عاطفة من عواطفه ثم نظروا نظرة الى الماضى فرأوا ان الذى اخر العالم الانسانى عن الوصول الى ما هيئ له من مقاوم الرفعة هو الانصياع الى اوامر رجال ادعوا أنهم قادة الأديان ورؤساؤها فانحوا عليهم طعناً وتنديداً ورموا تعاليمهم بتهمة تأخير الانسان واهباطه ومن ذلك ما قاله فوير باش متهكماً (ان الفضيلة الدينية وعلى الخصوص الفضيلة العليا اى فضيلة الاولياء هى ان تنبذ الحياة المدنية والسياسية وان تطرح سائر الاعمال والاشياء الدنيوية كأنها لهو باطل لا بد لك أن تستطيع بدون ترويح لنفسك وبقلب منكسر ان تذبل فى انتظار الجنة · وأن تقتل جميع عواطفك واميالك الطبيعية وتميت نفسك وتذلها ·)

رأى علماء اوربا والدليل الحسى بين ايديهم أن رقى الانسان منوط برقى العلم ونموه وان نمو العلم ورقيه مرتبط باطلاق العقل من قيوده وتحرره من أصفاده وعدم سيطرة شئ من الاشياء على الابحاث العلمية حتى لا يتأتى من تلك السيطرة ما حصل من نتايج المنابذة بين رجال الاديان ورجال العلوم فى الازمنة الماضية · قال المسيو بلوك (ان رقى

القوة الفكرية وحسن الحكم على الاشياء بتعلق بنمو العلم وقد تحصلنا على هذه النتيجة بترقية معلوماتنا التي هدمت أركان كثير من ضلالاتنا السابقة من جهة ومن جهة أخرى باستعمالنا الحسن النظر والتدقيق في الأشياء)

لاعتقاد العلماء الاوربيين بان حرية العقل والعلم هي مناط كل السعادات المادية والمعنوية تراهم لا يستطيعون ان يكتبوا تاريخ الضغط عليهما الا بمزيد الانفعال والتغيظ من الماضي متشفين من الذين يؤملون ان يعيدوا الكرة . ولنترجم قطعة صغيرة من اقوال لاروس الشهير ليرى القارئ مقدار التحمس الذي يتذكر به علماء الغرب ضغط الزمان السابق قال (ان قلنا ان الاحسان يقتضي اعتقاد الاشياء المعقولة . يقولون كلا كلا . ثم يسعون في تذليل هذا العقل الانساني الذي يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم . حتى اذا أعموا عين العقل وغشوا باصرة البصيرة لدرجة بها ترى الكرامات كانها امور معتادة وتظن الابيض اسود وتعد الرذيلة فضيلة يعود الدين فيقول اطيعوا . نطيع من . هل نطيع العقل . هل الواجبات الطبيعية هل الاحساسات القلبية هل النواميس الحقيقية المفيدة للانسانية والتي تنتج من تلك القواعد نفسها . كلا ولكن اطع وانت اعمى الى الذي يحكم باسم الله حتى ولو أمرك بقتل مليكك أو أبيك أو بعمل مقتلة عامة فانه ليس لك لا روح ولا ضمير انما أنت ميت في الله .)

الى هذا الحد واكثر وصلت مناوأة علماء اوربا للاديان الموجودة ولكن هل نستنتج من هذه المناوأة انهم تركوا التدين بالمرة وزعموا انهم استغنوا بعلمهم عن الاخبات والخضوع لخالقهم وخالق كل شيء . كلا انهم ليقرون مع اصحاب الاديان ويزيدون عليهم في استدلالهم بالابحاث العلمية ان الاحساس الديني هو غريزة النفس البشرية لا تقل في الوضوح والتأثير عن الاحساس بضرورة الغذاء قال (جيبزلر) الفيلسوف الالماني في كتابه تاريخ الاعتقادات (الدين مخالد مثل خلود الاحساس الذي ينتجه ولكن علوم الدين هي مثل سائر العلوم الاخرى يجب ان تكون قابلة للرقي على قدر الرقي العقلي

وذلك مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وعلم التشريع فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام .)

وقال المسيو ارنست رينان فى كتابه المسمى تاريخ الاديان (من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ولكن يستحيل ان ينمحى التدين أو يتلاشى بل سيبقى ابد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية .)

ملخص الامر ان علماء اوروبا الذين يركن اليهم مجمعون على انه من المحال أن تزول من النفس غريزة التدين كما يستحيل أن تزول منها غريزة الحب أو البغض ولكنهم قرروا مع ذلك وكتبهم شاهدة عليهم أن لا دين من الاديان الموجودة يصلح لان يكون الدين العام للجمعية البشرية المستقبلة ولا الحاضرة . لماذا . قالوا لعدم انطباق اساساتها على قواعد العلم ولمعاكسة نصوصها البداهة العقل ولتقييدها الامور تقييدا ينافى ما عليه المدارك البشرية من الحرية والانطلاق ولذلك قال احد فلاسفة اوروبا ان الدين كان يبقى غير قابل للزوال والتلاشى اذا كانت قواعده مطلقة عن الحدود ونواميسه مجردة عن القيود كما هو استعداد الانسان للكمال المطلق واهليته للرقى الذى لا يحده وصف الواصف . ويقولون انه لو كان دين من الاديان الحاضرة يستطيع ان يؤلف بين الاحساس الدينى المغروس فى جبلة الانسان وبين مطالب الحياة وواجباتها ويسير بالجمعية البشرية الى حيث هدتنا اليه الابحاث العلمية من السعادة المرجوة للزم الاعتراف بضرورته اعترافا قطعيا قال لاروس بعد أن ندد بنظامات الاديان ما يأتى (ليست هى الديانة التى تحث الرجل على اداء واجباته بل هو الفكر العام وقوة الطباع والاحساسات التى تنشأ فى داخلية العائلات تحت ظل ذلك الفكر العام الذى هو نفسه يزيد تهذبا ولطفا كلما تقدمت المدنية والمعلومات . فان عرفت الديانة بانها مجموع افكار صالحة لربط جميع افراد البشر الى جمعية واحدة متمتعة

بالفوائد المادية كما هي منشورة في القوة العقلية فقد حق لك اذن ان تقول ان الدين ضروري للنوع الانساني ·)

هذا ومن الادلة الحسية على أن العقل البشري مهما ترقي وتقدم فلا يستطيع أن يعيش بلا دين هو أن طائفة كبيرة من علماء اوربا قامت بتأليف ديانة سمتها الديانة الطبيعية ولم يدخلوا اليها من القواعد والاصول الا ما دل على حقيقته البرهان وقام بالدلالة عليه الحس والعيان وسنأتي في الكلام على أسس الاسلام على اهم قواعد ذلك الدين الجديد ليرى المسلمون باعينهم أن دينهم لم يترك مجالا لجائل ولا مقالا لقائل (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون)

﴿ ماهو الاسلام ﴾

أي بليغ يتصدى للكلام على الاسلام ولا يشكو من العجز التام والقصور البين عن القيام بتوفية هذا المقام السامي حقه من التبيين · واي حكيم يتعرض لتفصيل بدائع هذا الدين الحنيف ولا يعد نفسه من القاصرين المقصرين (ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله)

أي مادة غزيرة وقريحة سامية وعالية شاملة يجب أن يتصف بها الانسان لأجل أن يمكنه فهم وتفهيم هذه النواميس الأزلية الأبدية التي تدور عليها الأدوار وتمر بها القرون والأعصار وهي هي كما كانت نواميس يزيدها القدم شبابا ويلبسها الزمان من الجدة جلبابا وتودعها الأجيال للاجيال ولا يدركها الا الذين انار الله بصائرهم بنور العرفان وأطلع في سماء أفكارهم شموس التبيان (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)

انا نقول بتمام الحرية وكمال الاستقلال والعلم نصيرنا والعقل ظهيرنا ان الاسلام هو سنام الكمال الأعلى الذي خلق الانسان واعد للرقي اليه والذي لاجله وضعت فيه غريزة الدأب والبحث عليه · بل الاسلام هو امنية النفس البشرية التي فطرت

لتنشدها

لتنشدها وتحسبها كاعظم غاية لها واسمى نقطة الكمال لها فهى لاتفتأ تتطور فى كل الاطوار وتدور مع كل الادوار بحثا عن تلك الضالة العزيزة المنال والتى فى وجودها راحة لها من البلبال ومقنع لها من كل الآمال والأميال

نعم الاسلام هو الغاية الكمالية التى مات دون نوالها الحكماء وفنى قبل اكتناهها العلماء. الاسلام هو القانون الاقوم والناموس الاعظم الذى منّ الله به على هذا النوع الضعيف ليقيم أود حالتيه ويغنم به سعادة حياتيه ويجعله الركن الذى يعتمد عليه ويهرع فى الشدائد اليه . منّ به على هذا النوع خاتمة للاديان وتاجا على هامة الزمان وفى الحين الذى تم فيه نمو عقل الانسان ليكون حجة من الله على عباده تنطق بالحق وتصدع بالعدل وتريناطريق الهدى بالحجة الكى لا يكون للانسان بعد أن بلغ رشده تعلة فى رفضه ولاقوة فى دحضه

الاسلام دين خدمته العلوم الطبيعية على غير علم من ذويها حتى صارت نصوصه فى هذا القرن اوضح من الضياء وأسهل جولانا فى العقل من الشعاع فى الماء فلا قاعدة دلت عليها التجارب ولانظرية تأسست بشهادة المشاعر يكون لها اثر فى ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الاوهى صدى صوت آية قرآنية أو حديث من الاحاديث النبوية حتى يتخيل للرائى ان كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الارضية فى سبيل رفعة شأن الانسانية لايقصد به الااقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد)

بناء على ماقدمنا فلن يمكن صدم تيار الاسلام بأى وسيلة كانت لانه لافرق بين صدمه وبين صدم المدنية الانسانيه والترقيات النفسيه وبين محو النصوص العلميه العمليه ورد الناس الى الحالة الأوليه . وهذا أمر ان يقدر عليه مجموع الانس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره)

فلنشرع الآن بعون الله تعالى فى اثبات ان كل مانقرؤه من قواعد المدنية العصريه

ليس بالنسبة الى قواعد الديانة الاسلامية الا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر وأسهل سبيل يوصلنا الى هذا الغرض هو ان نتكلم على اسس المدنية الحالية ثم نثبت انها بعض اسس الديانة المحمديه بطريقة جلية واضحة ۔ فنقول

﴿ ماهو الدين ﴾

ان لفظة دين قديمة جدا كقدم مسماها وشائعة بين كل الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها وحشيها ومتمدنها ولكنهم لم يدركوا معناها على الوجه الحقيقي الذى جاءت به الشرائع الالهيه والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته ۔ ومن يتدبر التاريخ يرى ان الشعوب المختلفة قد تطورت أطوارا كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على حسب تطور العقل البشرى فى فهم المعقولات

كان الاقدمون لا يعرفون الدين الا أنه مجموع احتفالات عموميه تضحى فيها الحيوانات أو أسرى الحروب ارضاء لمعبوداتهم وتسكينا لغضبهم ۔ ثم لما ترقت المدارك الانسانيه ونمت فيها الغريزة العقليه بطرق العلوم والفنون أخذ معنى الدين ينجلى شيأ فشيأ ويقرب رويدا رويدا من المعنى المراد لله والذى جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه كذلك ۔ نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للاسلام يجب علينا أولا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوربا من هذه اللفظة بعد ان فحصوا العلوم فحصا وأوسعوا الكون بحثا عن نواميسه وتنقيرا عن قوانينه لنجعل هذا من بعض الادلة الحسيه على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العالم فى سبيل فهم الحقائق هى تقرب ظاهر الى الاسلام فنقول ان علماء أوربا بعد ان دخلوا فى كل دور يمكن أن يدخله الانسان المعرض لكل أصناف الفتن العلميه (ومن يطالع تاريخ العلم من أول سقراط للآن يرى العجب) عادوا الآن حيث الهدو شامل وبذر العلوم كامل فاعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقا قادرا حكيما متصفا بكل صفات الكمال ومنزها عن أقل ما يشعر بالنقص ۔ وانه جل سلطانه وضع

الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر اليه بروية أن يستنتج منها تلك الصفات العليا استنتاجا محسوسا وأن يتعلم منها أمورا يغنى الجرى عليها مع قلتها وسهولة فهمها عن ألوف القواعد والتعاليم التى كانت تلقى على الناس فيحنون رؤسهم خضوعا لها ولكن على غير فهم لحكمتها ونتائجها . ثم رأوا بالاستقراء لنظام الكون ونواميسه أن الخالق جل شأنه يتعالى علوا كبيرا عن الاحتياج لكثير من صنع يده بل هو غنى بذاته عن كل ماعداه ۞ ثم قالوا ان غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتماما يدل على عظيم رحمته وسعة رأفته وأقل نظرة فى الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية . انظر الى أصناف النباتات والحيوانات من أدناها الى أعلاها ترى آثار هذه المرحمة الكبرى تتجلى على الانسان تجليا يبعثه رغم أنفه الى محبة ذلك الخالق العظيم ۞ فانه جل سلطانه لم يترك كائنا من الكائنات الا ووهب له مايقيم له أود حياته و بقائه ومايدفع عنه البوائق والجوائح الا مايستلزمه نظام الكون ويكون فى حصوله أثر من رحمة اسمى ورأفة أعلى بمجموع هذا الوجود . ثم ان الها هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة الا مافيه حكمة بالغة وفائدة عظمى لذات الشخص و بنى نوعه وسائر أجزاء الطبيعة . لان مجرد التدبر فى جميع أنواع الكائنات يدلنا دلالة واضحة ان خالقها لم يخلقها وهو مريد افسادها ولا شاتها بل خلقها وأراد اصلاحها و بقاءها ومما يدل على ذلك ايداعه فيها القابلية للترقى والتدرج لدرجة حددت فى سابق علمه ۞ ولما كان الانسان لا يفترق فى النسبة الى الله عن سائر الكائنات الاخرى بل يزيد عليها فى كونه نهاية الابداع وغاية الاختراع فيكون بالأولى خاضعا لناموس الرقى والتدرج وقابلا له أكثر من سواه ۞ هذا هو الواقع فان من يتأمل فى مبلغ الرقى الذى حصل له الانسان من أول نشأته الى الآن يتحقق أن الخالق جل جلاله وهبه من الخصائص مايستمر به ترقيه وتدرجه الى نقطة لم يصل اليها الفكر البشرى للآن ۞ ثم قالوا وحيث ان أفعال الله مجردة عن العبث والتناقض فيجب أن تكون تلك العبادة المرغوبة لله تعالى موافقة للنواميس الثابتة السائدة فى عموم الكون وملائمة

للاميال والاحساسات المغروسة فى جبلة النوع الانسانى . فاستنادا على هذه المبادئ العلمية التى لا يصح الامتراء فيها بنى طائفة عظيمة من علماء أوربا ديانتهم الطبيعية واليك ماقاله فى هذا الموضوع أحد نصرائها وهو الفيلسوف الشهير جول سيمون قال . (انا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته وعندما ينتهى بقاؤنا فهو اما أن يثيبنا واما أن يعاقبنا) ثم ذكر الأسباب التى تقتضى الاثابة والعقوبة فقال (أما الامر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الانسان لقانونه الخاص وعمله للخير . اما قانون الانسان الخاص فهو حفظ ذاته وترقية خصائصه المودعة فيه ثم هى محبة وخدمة اخوانه . ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ماهى الطريقة التى يعبد بها الانسان ربه . ان اداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة والحب والعمل والاخلاص هى نفس العبادة ونفس الصلاة . والاخلاص للوطن هو عين خدمة الله تعالى . هذه هى الديانة الطبيعية وهذه هى العبادة الطبيعية . كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . اما أصوله فهى الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شئ ولا يغيره شئ خالق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى . هذا هو اعتقادنا فأما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوأ بمحبة الله تعالى ومحبة الانسان وأن تكون لنا ارادة ثابتة فى اداء الواجب وخدمة ارادة الله تعالى بعمل الخير والبر .) اه . وهنا نستدرك فنقول ان أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجسمية مطلقا كما يؤخذ ذلك من كلام جول سيمون فى غير هذا الموضع الا انهم فقط لا يحتفلون بعبادة جسمية لا يكون من نتيجتها فائدة أدبية تذكر فهم يريدون أن تكون معتبرة وسائل لاحياء القلوب وتطهيرها من ادناسها لا أغراضا قائمة بنفسها مجردة عن كل غاية . قال كزن الفيلسوف الطائر الصيت . (العبادة الخارجية لا تكون رديئة الا اذا اعتبرت أغراضا لا وسائل وهى يمكن ان تكون نافعة مفيدة اذا لم تعتبر الا وسيلة لايقاظ وتقوية الاحساسات الفاضلة فى النفس البشرية)

أما نحن فنلخص من كل هذه الاقاويل أربعة أمور مهمة هي مذهب علماء أوربا في الدين وهي (أولا) الاعتقاد بأن الله غني عنا وعن أعمالنا وان ما نعمله من الخير لا نتيجة له الا المنفعة الخاصة (ثانيا) ان الله تعالى رحيم بالانسان ويود صلاحه ولا يكلفه بالعبادة الا لفائدة نفسه . (ثالثا) ان العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة وتلائم الطبيعة البشريه لا أن تعارضها وتسعى في ملاشاتها (رابعا) العبادة الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها لا اغراضا مطلوبة لذاتها

نقول ان هذه الاربعة أمور التي لم يبلغها العقل البشرى الا بعد ان شابت ناصية الكرة الارضية وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجبا ويميلون طربا ليست هي الاشعاعا من الديانة الاسلامية وقطرة من بحرها الزاخر ونحن لاجل زيادة الاقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الامور الاربعة مرتبة على حسبها فنقول (أولا) قال تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين . (ثانيا) قال الله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون (ثالثا) قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها . وقال تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم . وقال تعالى يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا (رابعا) قال عليه الصلاة والسلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا وقال عليه الصلاة والسلام كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين وقد رأيت انها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق . ولما كانت مطاعن علماء أوربا على الاديان لم تتوجه اليها غالبا الا من هذه الوجهة الرئيسة التي ينبني عليها سائر قواعد

الدين فقد حق لنا أن ننادي بأعلى صوتنا ان الاسلام أعلى وأسمى من أن ينال سهم من سهام ذلك التنديد المشين وأكبر وأجل من أن يلحقه طعن الطاعنين

هذه الاربعة قواعد يعتبرها علماء الديانة الطبيعية أركانا ينبني عليها كل قاعدة قانونية يكون في العمل بها تقدم الانسان الى النقطة الكمالية التي أعد هذا النوع لبلوغها ۞ ولما كان العلم هو المنوط اجماعا بتحسس تلك القواعد المرقية للانسانية فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل اليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية في الجرى على سننها ارضاء الخالق وقيام بطاعته . اما المرويات القديمة والأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمته من قواعد الدين فقد صدفوا عنها وهجروها هجرا كليا . قال كن (الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الاعلى قوانين أعنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية) كأن كن يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

﴿ الناموس الأعظم للمدنيه ﴾

ان من يتدبر في تفاصيل تاريخ الامم من يوم تكونها الى الآن لا يرى فيها الا أهوالا تشيب الولدان وترعد فرائص الانسان . يرى حروبا دمويه وفتنا اجتماعيه ومصائب عائليه ومفاسد أخلاقيه ۞ يرى الاطماع والشهوات البهيميه لابسة لباس النفاق والوحشيه تسفك الدماء وتيتم الابناء وتهدم كل بناء . يرى رجالا رفعتهم الصدف الوقتيه الى مقام الشرف الوهمية جعلوا من دونهم عبيدا يمتصون دماءهم ويبتزون ثراءهم لاطفاء جمرة شرتهم واشباع بطن نهمتهم ۞ اللهم الابعض مستثنيات من السعادة كانت تشرق في بعض الامم ثم تختفي ليحل محلها الشقاء والكمد

هكذا ترى تاريخ الانسان كله مملوأ بالاحن والمحن مفعما بالكدر والحزن مما يكره اليك بني نوعك ويحبب اليك اتهام نفسك . ولكنك لو علوت قليلا عن مثار هذه القلاقل والزلازل ونظرت الى النوع البشري من وجهة أخرى لرأيت بعينك ان هناك ناموسا ثابتا يبعث الانسان من خلال هذه المضائك الاجتماعية والارتباكات العموميه الى التقدم نحو الأمام رغما عما يساوره في جميع جهاته من هذه النوائب المصمية . ثم لو عبرت من مركزك هذا الى أسمى منه لتحققت ان تلك الارتباكات كلها هي نواميس ثانوية تابعة لذلك الناموس الذي شاهدته أولا وان تلك الارتباكات والمضائك هي أفاعيلها وآثارها تنفعل في العالم لكي يرتج في بعضه ارتجاجا ينفصل عنه خبث الاخلاق البهيمية ودرن النزعات الوهميه هذا أمر لامشاحة فيه خصوصا في عصرنا الحاضر ويمكنك أن تهتدي اليه بقليل من الاستقراء فانك لو تفحصت في كل نازلة مهمة ألمت بالعالم في عصر من عصور التاريخ لرأيت انها جلبت معها فائدة عظمى لو وزنت مع المصيبة التي سبقتها لرجحت عليها رجحانا يقلل من تأثرك من تلك المصيبة بل يرضيك عنها رغما

نحن في هذا الكتاب الوجيز لانستطيع أن ندرس وقائع النواميس الاجتماعية التي بتأثير أفاعيلها على النوع الانساني خرج من ظلم الجهالة والوحشيه الى باحة النور والمدنيه . كلا فهذه أمور تعوزنا الكثير من البحث والتدقيق بخرجنا عن نيتنا الأولى من جعل كتابنا هذا صغير الحجم شاملا لاطراف موضوعنا ولكن ذلك لايمنعنا من ان نلم بسر هذا التدافع الاجتماعي الماما يسهل علينا بحثنا ويبرلنا المسائل الاجتماعيه الكبرى بطريقة تر ينا الحقائق مجسمة أمام أعيننا لتكون حجة التطبيق أكثر اقناعا فنقول . ان أول ضرورة شعر بها الانسان بعد مقومات حياته الشخصية هي ضرورة الاجتماع على طائفة من بني نوعه ☐ فكنت تراه من جهة ذاته على تمام الحرية لايقيده شيء من الاشياء ومن جهة أخرى ضعيفا عاجزا لدرجة تلزمه أن يضحي بعضا من هذه الحرية في سبيل اقامة أود حياته هربا من فناء عاجل لهذا أجمع علماء العمران على ان الانسان مطبوع على الاجتماع رغم أنفه

لانه من مقومات حياته التي لايمكنه أن يستغني عنها كما لايمكنه أن يستغني عن المأوى والملجأ .

بين هذه الحرية المطلقة التي يشعر بها الانسان في نفسه وبين احتياجه لان ينضم الى جمعية من بني نوعه قامت كل الفتن التي حدثتنا بها التاريخ وترويها لنا السير . كما بنى عليها كل ماشاهدته ونشاهده من التفاعل في أجزاء النوع البشري جريا وراء الغاية المتمناة وعلى هذا الحوادث التاريخ كله في الامم جمعاء مبنية على تحديد قواعد الحرية المعتدلة التي تليق بمقام النوع الانساني وعلى تحديد السلطة التي تستلزمها حالة الاجتماع . ولم يزل النوع الانساني للآن هدفا للتدافع الهائل بين أجزائه طلبا للاهتداء الى الحد الفاصل بين هاتين القاعدتين الا أن هذين القرنين الاخيرين يمتازان عن سابقيهما بشدة القرب من ذلك الحد المعتدل بفضل الدماء الغزيرة التي سمح بها محبوا الحرية في أوربا في القرن الفارط مما لم يسبق له مثيل في عصر من العصور السابقة . قال علماء العمران وهذه الحرية التي نالتها الامم الأوربيه في هذا القرن الاخير هي سبب كل الرقي الذي نرى آثاره الآن على ربوع أوربا .

ماهي تلك الحرية التي جاهدت أوربا بنوالها جهاد الابطال وبذلت لتحقيقها كل مرتخص وغال هل هي بعيدة عنا بعد السماء من الارض أو بعد اجتهاد أوربا من حول الشرق . كلا هي بين أيدينا ولكننا غافلون عنها كغفلة الغني الابله عما بين يديه من الكنوز التي لو صادفت مالكا كفؤا لساد بها على غيره ولاطلق الالسنة بالثناء على خيره . نعم هي بين أيدينا ولو شئنا العمل بها وجرينا على سننها ونحن آمنون مطمئنون لانتكلف في سبيل تأييدها بذل المهج ولا اقتحام الرهج . بل هي من محفوظاتنا عن ظهر قلب ولانتكلف فقط الا فهمها على حقيقتها ببذل قليل من التدبر . لو فعلنا ذلك حصلنا الغرب في قليل من الزمن فلا يسعه وقت ذلك الا أن يندهش من سرعة رقينا كما اندهشت دولتا الرومان والفرس من سرعة انقلاب حالة العرب من الوحشية الى المدنية العليا في بضع وعشرين سنة

ماهى تلك الحرية التى يقول عنها المسيود • فيو (الحرية هى أفضل سعادات الدنيا) والتى يقول عنها باسيا (الحرية هى أصل كل الرقى الانسانى) والتى يترنم بحسنها فيكتور هوجو ويقول (يمكن أن يقال ان الحرية هى الهواء الذى يجب أن تتنشقه النفس الانسانيه) • هل هذه الحرية هى الانفراط الكلى من كل قيد والانخلاع المطلق من كل رابط • كلا • فتلك حرية الحيوانات التى لانحسدهم عليها • بل الحرية التى يتوق اليها فلاسفة الامم هى الحرية المعتدلة التى تسمح للانسان باستعمال سائر خصائصه بدون أن يخشى مسيطرا عليه الا اذا تعدى حدوده المحددة له بواسطة الشريعة العادلة وكان تعديه ذلك مضرا ببعض أعضاء الجمعية التى هو فرد منها هذه هى الحرية التى يتلمسها عقلاء الامم من يوم أن تسنموا هامة هذه الكرة الارضية وهاهم لم يزالوا للآن فى جهادهم الأول ولو كانت أشكاله تغيرت عما كانت عليه أيام كانت القنا والقواضب هى صاحبة القول الفصل والكلمة العليا • ونحن هنا قبل أن نتكلم عليها لاجل أن نطبقها على قواعد الديانة الاسلاميه يجب علينا أن نتكلم قليلا على جهاد النوع الانسانى وراءها من منذ بدء الخليقة لنستطيع أن نقف على تفاصيل المسألة من أولها الى آخرها ولنستدل على القواعد الاساسيه التى قامت عليها حرية الامم المتمدنه فنقول

﴿ جهاد الانسان لنوال الحرية ﴾

الانسان حر بطبعه ولا يحتاج الى مرشد يرشده الى الحريه لانها من الاحساسات الشديدة التأثير عليه اللهم الا اذا توصل الى تعكير وجدانه بالخزعبلات المطفئة لنور البصيرة كما حصل فى كثير من الامم • ولكن لما كانت الحرية المطلقة أى حرية الحيوانات تبطل عمل كثير من الخصائص المودعة فى الانسان والتى لاتتم الا بالاجتماع رضخ الانسان لان يضحى قليلا من تلك الحريه فى سبيل ممارسته تلك الخصائص • من هنا نشأت السلطة مع ما استلزمته من المناسبات التى أخرجت

تلك السلطة عن حدودها فى كثير من الاحوال . ذلك انه لما كان من ضمن أميال الانسان المودعة فى جبلته حب التسلط والعلوّ على سواه وجدت بعض النفوس مساغا الى تحقيق أمانيها من التسلط المطلق ومجازا الى متابعة هواها من التعالى الافراطى على الغير وتذرعت لذلك بكل الذرائع الممكنه

ولما كانت وسائط التسلط لا تنجح الا اذا واجهت الانسان من أشد احساساته تسلطا عليه وجد محبو القهر والجبروت ان أنجع تلك الطرق هى التأثير على الانسان من طريق الدين وكان الجرى على هذه الطريقة سببا فى تحريف اكثر الأديان واخراجها عن نصوصها الاصلية طمعا فى امتلاك أزمة القلوب والسيطرة على العقول . فكانوا يتربصون لكل حركة يأخذها العقل طلبا للتخلص من اوهاقه القاتلة فيبتكرون له من انواع التخرصات الدينية ما يقف امامه ولو حينا من الزمان مندهشا مذعورا حتى اذا اصدمه ما يراه أمامه واخذ يتحرك يمنة أو يسرة أتوا اليه فى الحال بما يثبط من تلك الحركة أو يمنعها من الانتشار . وهكذا دام الحال قرونا كثيرة جدا فى خلالها كانت كلمة أولئك المسيطرين هى الكلمة العليا وامرهم هو الامر النافذ حتى طرأ على العالم من تأثير نواميس الرقى ما يفكهم نوعا ما من ربقة ذلك الاستعباد المطلق لرجال الدين فنشأت سلطتان سلطة دينية وأخرى سياسية فحصل بينهما من التدافع والتجالد ما لا تكفى المجلدات لتبيين اهواله حتى توصلت بعض الشعوب المرتقية فى هذين القرنين الى التخلص من نير السلطة الدينية كما افتكت نفسها ايضا من غلو السلطة السياسية ففرحت تلك الشعوب بما حصلته من الحرية بعد ما شابت ناصية الغبراء وسترت مشيبها بالدماء وأخذ علماؤها يؤلفون الاسفار الضخام ترغيبا بتلك النعم الجزيلة وطفقوا يشنون غارة شعواء على كل الأديان بما لا نستطيع اثباته هنا وتغالوا فانذروا سائرها بالزوال ولم يعلموا ان كل ما نالوه بعد التى واللتيا البس هو الا تقرب الى الاسلام الذى اشرق نوره على العالم يوم كانت أوروبا فى ظلم الجهالة الحالكة .

جاء الاسلام فى وقت كانت فيه الدنيا بأسرها خاضعة لدولتين عظيمتين هما دولة العرب ودولة الرومان . أما الأولى فكانت القلاقل الداخلية والخارجية آخذة فى زعزعة

بنيانها

بنيانها وتقويض جدرانها واما الثانية فكانت لم تزل على جانب عظيم من عظمتها الأولى وكانت لم تبرح تزلزل الأمم بسطوتها وتدوخ البلاد بقوتها وكان فيها شطر عظيم من مدنيتها السابقة أى مدنيتها التى يقول عنها الاروس فى دائرة معارفه ما يأتى (ماذا كانت نظامات الرومان على وجه الاجمال . كانت عين الوحشية والقسوة مرتبة فى صور قوانين اما من جهة فضائل رومامثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجمعية فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . اما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية فكان لا يرى فيها الاشرها مفرطا للمال وحقدا على الاجنبي وضياعا الاحساس الشفقة الانسانية . اما العظمة فى روما والفضيلة فيها فكانت عبارة عن اعمال السوط والسيف فى العالم والحكم على اسرى الحروب بالتعذيب اوبالأسر وعلى الأطفال والشيوخ بجرعربات النصر .)

نحن لم ننقل هذه المقولة فى هذه المناسبة الا ليرى القارئ مبلغ المدنية فى ذلك الوقت عند اعظم امم الأرض ليتحقق ان كل ماسيراه من اساسات الاسلام الطاهرة ليس بالامر المستعار من أية امة من الامم الاخرى كما عسى أن يتوهمه بعض القاصرين ولن نكتفى بهذا بل سنثبت ذلك من أقوال اساطين علماء أوروبا

قلنا ان الامم المتمدنة نالت من الحرية فى هذا العصر ما بنت عليه كل رقيها العقلى والاخلاقى عما حدا باكثر علمائها أن يدعوا أن تلك الحرية منافية لنصوص الديانات كافة كما أسلفناذلك وبنوا على فكرتهم هذه وجوب زوالها كلها فى مستقبل قريب وحلول العلم محلها فى قيادة الانسان الى سعادته . اما نحن فسنبرهن بالادلة الحسية أن الاسلام فضلا عن كونه لا يعارض تلك الحرية التى رفعت الغرب من وهدته فانه يحتوى على قسط منها لا تقارن به حريات العالم على انواعها الا كما يقارن الخيال بالحقيقة .

ان حرية العالم المتمدن التى نشاهدها الآن على ما بها من عظم وجلالة لم تتأيد دعائمها ولم تثبت وطائدها الا بواسطة ثلاث حريات بسيطة أخرى كانت بالنسبة لها كأعمدة ثلاث بالنسبة لبناء فاخر . أما هذه الثلاث حريات الاولية فهى (أولا) حرية النفس

(ثانيا) حرية العقل . (ثالثا) حرية العلم . ولنتكلم على كل منها بوجه الاجمال مع اثبات انها بعض قواعد الاسلام فنقول

﴿ حرية النفس ﴾

ان أكبر وسيلة تذرع بها مذللو النوع الانسانى للسيطرة والقهر هى حرمانهم النفوس البشريه من حقوقها الطبيعيه وتجريدها من أهم خصائصها الفطريه وجعل تلك الحقوق والخصائص تحت تصرفهم الخاص يوجهونها الى حيث شاء هواهم ووافق كبرياءهم . فكانت كلمة اعتقد وأنت أعمى كما قال لاروس هى القاعدة المتبعة والناموس السائد على كل فرد من أفراد الامم . وكانوا اذا آنسوا من احد من الناس بارقة التحرك الى التفصى من أوثاقه الثقيلة أسرعوا بالحكم عليه بالمروق من الجمعية القدسيه وجعلوه طعمة للنيران أو اذاقوه من العذاب ما يقشعر له جلد الحيوان . انتحلوا لانفسهم حق الوصاية على النوع البشرى وكلفوا أنفسهم تربية صغاره فنقشوا فى مخيلاتهم من التعاليم والقواعد ما يجعلهم اذا شبوا آلات صماء فى أيديهم يستعملونها كيف شاؤا وفى أى غرض أرادوا . غرسوا فى أذهانهم أن السعادة والشقاوة الابديتين معقودتان بارادتهم ومرتبطتان بمشيئتهم (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) فنشأ الناس طبق القالب الذى صبهم فيه قادتهم وكانوا كلما تحركت ضمائرهم وتململت أنفسهم ناداهم مما انطبع فى سرائرهم من تلك التعاليم مناد يقول لهم . كلا انه لا أنفس لكم ولا ضمائر , ما عليكم الا أن تطيعوا طاعة عمياء . من هنا ماتت الحرية النفسيه ومات ما يبنى عليها من حرية المدارك المربية لانواع الملكات فلم يسع الطبيعة البشريه الا أن أقامت الحجة عليها فنغلت النيات ودويت الصدور وتشعبت الهواجس فى النفوس وافعوعمت الافئدة بالاضغان والاحن ووقعت الجمعيات فى حيص بيص وكان الناس فيها كقطع الخشب فى المراجل تغلى على تنور يصعدها او ينزلها غليان الصدور واضطرابات

الامور فنشأت الثورات الدمويه بفظائعها التي لا تنطبق على احساس ولا تدخل تحت قياس حتى كان ما كان مما يعلمه كل انسان لديه قليل من علم العمران في اثناء تلك الظلم الحالكه وقبل تلك القلاقل المزعجه كان خالق الانسان موجها عنايته السامية الى تربية الأمة العربيه في وسط الشعاب والصخور على مقتضى قواعد الحكمة العظمى التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليجعل منها امة تقيم الحجة على لسان الجبار الاعلى وتؤدب الطاغين بيد القهار الاقوى حتى اذا ثابت الأمم الى السكون بعد أن تنال من المدنيه ما قدر لها في العلم المصون وتاقت الى فهم مايدعيه المسلمون من أن دينهم هو الكنز المكنون والسر الذي قامت به السموات والارضون وجدوا أن كل ما وصلوا اليه بعد بذل المهج واقتحام الرهج ليس الا صورة منعكسة من تلك التعاليم الالهيه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فهلم ننظر الآن فيما يقوله الاسلام في حرية النفس . لنثبت لقادة الحكمة ونصراء النوع الانساني أن كل النظريات التي يفتخر بها علماء هذا القرن ماهي الا صدى الصوت الذي رن بين شعاب مكة والمدينة قبل زهاء أربعة عشر قرنا فنقول جاء الاسلام واضعا الاساس المساواة بقوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وقوله عليه الصلاة والسلام (ان الله قد اذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لان الناس من آدم وآدم من تراب وا كرمهم عند الله اتقاهم)

فامحى بذلك كل فضل يمكن أن يدعى باصالة المحتد او بوفرة الغنى أو بالانتساب الى قبيلة الى غير ذلك من دواعي الامتياز وبواعث الانحياز وجعل التمايز بالمزايا والاعمال لا بالفخفخة والاقوال فقال تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقرر أن التقوى ليست من الأمور التي يمكن للانسان أن يحكم عليها بمجرد النظر الى أفعال الرجل في الطاعات واجتهاده في أصناف العبادات فربما ذهب ذلك كله هباء منثورا لعقيدة رسخت في فؤاد فاعلها لا يطلع عليها غير الله تعالى . قال عز وجل (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) وقال النبي عليه

الصلاة والسلام (وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

قرر الاسلام أن قبول الاعمال الصالحة هو من خصائص الله تعالى فليس للعبد أن يحكم على تقوى يراها فى غيره بالقبول أو الرد بل يجب عليه أن يدع الحكم فيها للخالق جل شأنه حتى لو بلغت تلك التقوى بصاحبها الى درجة أعلته عن سائر أصناف الخلق قال عليه الصلاة والسلام (دعوا المحدثين من امتى) اى الذين تحدثهم الملائكة (لا تحكموا لهم بجنة ولا بنار حتى يكون الله هو الذى يقضى بينهم يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (ويل للمتألين من أمتى الذين يقولون هذا للجنة وهذا للنار)

لم يعين الاسلام طائفة من المسلمين لأمر خاص بامتيازات خاصة تعلو بهم امام القانون الالهى عن مرتبة اقل المسلمين حيثية وجاها بل فتح للكل باب الفضل الربانى وقرر أن ذلك الباب مفتوح للكافة على السواء يلجه من أراد الولوج بدون احتياج ولا عذر لمرشد غير كتاب الله وسنة رسوله . ولم يكتف بذلك بل حذر كافة متبعيه من الوقوع فى أشراك من يدعون الاشقاء والاسعاد أو ينتحلون لانفسهم حقا ليس لسائر الافراد . قال عليه الصلاة والسلام (من قال انا عالم فهو جاهل) وقال عليه الصلاة والسلام (اخوف ما اخاف على أمتى رجل يتأول القرآن يضعه فى غير مواضعه ورجل يدعى أنه أحق بهذا الأمر من غيره)

أكد الاسلام لمتبعيه أنه لن يغنى عن المرء يوم الحساب غير عمله وان ينجيه من غائلة العذاب غير مكتسبات نفسه فلا يجديه الانتساب الى عظيم أو الاعتزاء الى أب فخيم قال الله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى) وقال جل شأنه (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم (يا عباس ويا صفية عمى النبى ويا فاطمة بنت محمد انى لست أغنى عنكم من الله شيئا ان لى عملى ولكم عملكم) لهذا وردت الاوامر الالهية موجهة الى سائر الافراد على السواء ومكافة اصغر

عضو من اعضاء الجمعية الانسانية بما كلفت اكبر كبير فيها . قال عليه الصلاة والسلام (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) . هذه القواعد رفعت نفوس المسلمين عن ذلة الاسر لنفس بشرية أخرى وسمت بها عن التقيد باشارة غيرها لعلمها بأنها هى التى ستدان وحدها بما جنت والمسؤولة عما كسبت وانه لن تغنى عنها نفس مثلها مهما علت وسمت .

بمثل هذه الاساسات تتأسس روابط المواخاه وتتأكد عرى المساواة ولا يكون السواد الاعظم من الناس مقودين الى طائفة قليلة منهم يسيرونهم كيف يشاؤون ويوجهونهم الى حيث يريدون . نعم بمثل هذه القواعد تسود المساواه أتدرى ما نتائج المساواة . المساواة هى مبدأ أولى لمعرفة الحقوق والواجبات وأعظم مؤيد للعدالة والحرية بين سائر الافراد . المساواة هى الفاروق الاكبر بين العدالة الحقه وبين العدالة الوهمية التى تنخر عظام الأمم وتمتص دم حياتها قال نابليون (المساواة هى ينبوع كل عداله سواء كانت بين الشعوب أو بين الافراد) وقال الفيلسوف كوندرسيه (المساواة الطبيعيه لبنى الانسان وهى القاعدة الاولى لمعرفتهم بحقوقهم هى أساس كل الاخلاق الجيدة .

ونحن لا نود ان نختم مقالنا هذا حتى نثبت ان المساواة التى تتمتع بها الشعوب المتمدنة الآن ليست بقديمة العهد بل هى نبت الثورات الدمويه التى حصلت فى أواخر القرن الماضى . قال الفيلسوف فرنك (ان المساواة المدنيه التى تأسست منذ نصف قرن عند بعض أمم أوروبا آخذة فى الانتشار عند الأمم الأخرى تدريجا) ونحن أما يحق لنا ان نتلو قوله تعالى (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

حرية العقل

ان أكبر خصائص الانسان شأنا وأعظمها أثرا هى قوته العقليه . قلنا ان

الانسان لم يخلق كما خلق الحيوان مطبوعا على عمل مايقيم أود حياته بل خلق مجردا عن كل علم بما يستلزمه أمر بقائه ولكن منح فى مقابل تلك الجهالة بالقوة العقليه التى تكبر وتنمو بزيادة المعلومات فتغنى الانسان عن كل سوق طبيعى وترفعه تدريجا من الوحشية المظلمة الى المدنية النيرة ۔ ولكن منيت هذه الخصيصة الكبرى مثل سائر الخصائص العظيمه الاخرى لحكمة يعلمها الله تعالى بمن يسيطر عليها ويمنعها حينامامن تأدية وظيفتها على حسب قانونها المرسوم لها من القدم

لم يتربص مذللو النوع الانسانى لمواهب الانسان أكثر من تربصهم لهذه الموهبه الكبرى لعلمهم انها السلاح الحاد الذى لو جرد من غمده لم تقف أمامه جيوش الاوهام ولا ظلمات الاحلام فشددوا النكير عليها تشديدا حرم الانسانية من أعظم خصائصها حتى صرحوا بان استعماله فى فهم مايقولون يفضى الى الالحاد . فوقع الناس فى ظلمة من الجهالة أفضت بهم الى حالة من الوحشيه يحدثنا التاريخ بها وهو خجل من نفسه ناقم على أمسه . كان هذا حال الأمم فى الحين الذى كانت فيه أصول المدنية الحقه وحرية العقل يمليها الحكيم العليم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ۔ فبينما كان المسيطرون على الأمم يصيحون فى وجوه رعاياهم قائلين . اطفئوا نور العقل اطمسوا عين البصيره فان الدين ينافى العقل . كان رسول الحق يقول لمتبعيه وأصحابه (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) . وبينما كان أولئك القادة الغالون يقولون لمتهوريهم . تواصوا أيها الناس بترك العقل جانبا فانه يغضب ربكم عليكم ويجلب سخطه اليكم . كان صاحب المدنية الحقة صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه (ياأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ماأمرتم به ومانهيتم عنه واعلموا انه ينجدكم عند ربكم) الى آخر الحديث

بهذه القواعد الالهيه نال العقل حريته وتخلص من أوثاق كان يسف فيها ويتعثر فى أصفادها وصار هو المرشد الحقيقى للانسان وهى الوظيفه التى خلقه

لاجلها الملك الديان كما صارهو المميز الاكبر لافراد النوع الانسانى فى الافضليه بعد أن كان المميز فيها هى العبادة الظاهرية والتقوى العضليه قال عليه الصلاة والسلام (لا يعجبنكم اسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله) ماذا تفيد الانسان عبادته الظاهريه وأفعاله العضويه بينما يكون هو بضعف عقله عرضة لكل أنواع الافراط والتفريط يضع الأمور فى غير مواضعها ويزن الاشياء بغير ميزانها . فان كلف باداء وظيفة أساء استعمالها وأخل أعمالها لظنه الظلم عدلا والعدل ظلما . ألسنا نرى كثيرا ممن يدعون الصلاح والتقوى صاروا جوايح أممهم وبوائق وطنهم بمحض ضعف عقولهم . أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال كيف عقل الرجل فقالوا نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال (ان الاحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم .)

هذا هو مقدار تشريف الديانة الاسلاميه للقوة العقلية ولكن أتدرى ماذا كانت نتيجة تحرير هذه القوة الجليلة عند الشعوب المتمدنة بعدما نالوها ببيع الانفس رخيصة فى سبيلها . كانت نتيجته تمتعهم بكل ماتراه من عظمة مدنيتهم وشدة صولتهم وقوة شوكتهم . كانت نتيجته اهتداءهم الى طرق السعادة الدنيويه ومناهج الرفاهة الماديه مما نراه ونسمع به عنهم قال لاروس (اذا بحثنا بدون تغرض ولا وهم عن سبب الرقى الذى حصل فى العالم المادى والفكرى والاخلاقى من منذ طفولية الجمعيات البشريه الى أيامنا هذه فلا نراه الا تخلص العقل من الضغط عليه) ونحن لا نود أن نقفل باب هذا المبحث حتى نثبت للقارئ ان تحرير هذه القوة العقلية ليس ببعيد العهد عنا وانه لم يحصل الا بعد جهد جهيد وجلاد شديد قال لاروس (من منذ زمن الاصلاح لغاية الثورة الفرنساوية استمرت المجالدات بخطوط مختلفة بين محررى العقل وبين الضاغطين عليه من القدم . ولاجل الاعراض الكلى عن أساطير الماضى ورسم خطة جديدة للمستقبل أخذت الثورة الفرنساويه فى ترميم

ماتهدم من أركان الجمعيه وصار تعليم النشأة الجديدة من أهم اشتغالاتها) أما نحن فنقول (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

تحرير العلم

نسبة العلم الى القوة العقليه هو كنسبة الغذاء الى الهيئة الجسميه فكما ان الجسم ينمو ويزيد بتمثيله أنواع المواد الارضيه كذلك القوة العقلية تكبر وترتقى بتمثيل النظريات العلميه والمعلومات الخارجيه . لهذه العلة أخذ مذللو النوع الانسانى فى التشنيع على العلم والتنديد به وبمحبيه وحكموا انه الرجس الذى لا يصح أن يحام حوله أو يقصد حوضه . قال لاروس فى دائرة معارفه (أما هم فيعتبرون ان العلم هو الشجرة الملعونة التى تقتل باثمارها بنى آدم) نعم انهم تصدوا للعلم تصديا منع الناس عن ذكراسمه والعروج على رسمه وأخذوا يحرفون فلسفة الاقدمين لتنطبق على أوهامهم وتتوافق مع أحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكلا مشوها ينفر العقل من رؤيته ويأنف من روايته

زعموا ان لديهم العلم الذى لا جهل معه والكنز الذى لا يفتقر من جمعه فحكموا ان كل ما أتى من الخارج منه يكون خارجا عن نطاق التحقيق ولا يقول به الا زنديق فيسرعون بالحكم عليه بأقصى ما يتصوره العقل من العقوبة الجسميه مما يروع الجسور ويزع الصبور فأماتوا بهذه الطريقة عددا عظيما من الحكماء بتهمة انهم يسعون فى زيادة مواد العلم ومن يطالع تاريخ العلم ير العبر .

بهذه الوسائل الجبروتيه سكنت عاطفة العلم ولم تفعل الان أقامت الحجة بلسان النواميس الحيويه وكانت تلك الحجة الناطقه هى سيادة الجهالة والاضاليل ورواج أسواق الأوهام والاباطيل حتى تغلبت الاميال البهيميه على العواطف الانسانيه وعدا الاقوياء على الضعفاء فسلبوهم كل مزايا الحياة وحقوق الطبيعه ودام الهرج والمرج سائدين على أحوال الانسانيه حتى بلغ السيل الربى ولم

يبق فى القوس منزع لجاء دور الثورات الداخليه والمقاتلات الدمويه طلبا لتحرير العلم من ربقته الجهنميه وكان ما كان مما يعلمه من ألم بتاريخ ذلك الزمان :

هكذا كان حال الامم قاطبة بينما كانت الحقائق الالهية تنزل من السموات العلى على سيد الملا صلى الله عليه وسلم وتملى عليه أصول المدنيه الحقيقيه والعلم المطلق من قيود العبوديه . جاءت الديانة الاسلاميه فاكتسح فساد العلم حالة اغلال المعارف مقررة أنه من الظلم المشين والاعتساف المهين تقييد العلم بقيد أو تحديده بحد فقال عليه الصلاة والسلام (من قال ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله بها) حيث يقول (وما أوتيتم من العلم الاقليلا)

صرح الاسلام عن لسان الحكيم العليم فى قرآنه الكريم بان فهم حكمة الخالق فى كلامه المنزل على صفوة أنبيائه لايتأتى الابانارة الفكر بانوار العلوم وتقويم النظر بمبادئ المعقولات فقال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون) ولم يكتف بهذا بل انذر المتكاسلين عن طلب العلم بسوء المنقلب و بالطبع على قلوبهم برين يؤديهم الى سوء العذاب فقال تعالى (ولئن أتيتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) . بمثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول أبواب العلوم الصادقه والمعارف الحقه وأراهم ان طلبها والسعى فى اكتسابها هو من أعظم مايعبد به الخالق جل شأنه فقال عليه الصلاة والسلام (أفضل العبادة طلب العلم) وقال عليه الصلاة والسلام (نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة)

لم يحصر الاسلام العلم فى بلد من البلدان ولا عند طائفة من بنى الانسان بل أمرنا باصطياد شوارده حيث كانت وأنى وجدت فقال عليه الصلاة والسلام (اطلب العلم ولو بالصين) وقال عليه الصلاة والسلام (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها انى وجدها) فليس للمسلم أن يرفض حكمة ما بحجة كونها صدرت عمن هو مناف له اعتقادا أو مغاير له وجدانا بل يكفيه باعثا لاخذها كونها حكمة وكونها مما يرفع شأن

الانسان وتزيل من جهالته قال عليه الصلاة والسلام (خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) .

أتل آى القرآن الحكيم بتدبر وروية تر آيات صوادع تزع الانسان عن الغفلة عن العلم وتردعه عن الاغضاء عن نواطق الحكم . ترى الجبار الاعلى ينادى عباده بلسان الرحمة قائلا لهم (انظروا ماذا فى السموات والارض) ويبكت المقصرين فى النظر ليعتبر أهل الفكر بقوله (وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وينذر الذين يعمون أعينهم عن تدبر بدائع الاكوان الباعثة لمزايا العرفان بقوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) هذا هو شأن حرية العلم فى الاسلام فهل وصل الاولون والآخرون الى اعلاء شأنه واكبار مقامه الى أكثر مما رأيت فى هذه الآيات التى تبعث الجماد فضلا عن الانسان وهل هذه الحرية العلمية بعيدة العهد عن أبناء هذا العصر . كلا . قال المسيو برتلو (أحد نظارة خارجية فرنسا السابقين وأكبر علمائها الكيماويه) ان العلم لم يتوصل الى نوال حرية الامن منذ مائتى عام . الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعيه

قد أتممنا الكلام بوجه الايجاز على الثلاثة أنواع من الحريه التى انبنى عليها كل الرقى الذى حصل فى العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسيه على ان كل تلك القواعد الاساسيه المدنيه ليست الا شعاعا من أنوار الديانة الاسلاميه ولكن هناك قواعد ثانوية أخرى هى نتائج تلك القواعد الرئيسة يجب علينا أن نتكلم عنها بوجه الايجاز حتى نرى لكل من عنده مسكة من العقل تفسير قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) فنقول والله المستعان

﴿ الواجبات الشخصيه ﴾

كل انسان يشعر بأنه مكون من جوهرين متميزين عن بعضهما هما الجسم والروح ۞ وانهما متحدان مع بعضهما على تغاير طبيعتهما اتحادا غريبا بطريقة بها يتأثر أحدهما اذا تأثر الآخر ولو كان نوعا التأثرين والمؤثرين متباينين جدا • وبناء على هذه النظرية اهتدى النوع الانسانى الى أن مناط السعادة المتناة هى حفظ هذين الجوهرين من أن يعتريهما ما يخل بوظائفهما فصار الاعتناء بكليهما ضربة لازب قال لوك (السعادة التى يمكن للانسان أن يتمتع بها فى هذه الدنيا تستلزم أمرين اثنين عقلا صحيحا وجسما سليما ۞ هاتان النعمتان هما مستقر كل النعم الاخرى ويمكن أن يقال ان من توفرتا عنده لم يبق فى نفسه حاجة لغيرهما • ومن حرم من احداهما فلا يتصور أن يكون أسعد ممن يملكهما معا مهما كان متمتعا بمزايا أخرى لانهما السبب الاولى للسعادة والشقاء فالذى لا يكون مالكا لعقل سليم لا يهتدى عمره لطريق السعادة المبين والذى لا يكون جسمه صحيحا لا يستطيع أن يخطو فى ذلك الطريق خطوات مهمه) ۞ اذا تقرر هذا نقول ان الانسان متنازع بين نوعين من المطالب وهما مطالب روحيه تستلزمها سعادته النفسيه ومطالب ماديه تستوجبها سعادته الجسميه • أما المطالب النفسيه فهى مجموع قواعد لا يقصد بها الا الحصول على صحة النفس البشرية وجعلها صالحة لتأدية وظائفها التى خلقت لها كما أن المطالب الجسمية هى مجموع قواعد لا يراد بها الا صحة الجثمان وتمكينه من تأدية وظيفته المطلوبة منه فى الحياة الدنيا نقول ان ادراك ان السعادة الانسانية المتناة هى اصلاح حالة النفس والجسم معا وحفظ النسبة بين مطالبهما صارت الآن من البداهة التى لا يمترى فيها اعاند علماء العالم أجمع وقد سبقهم الاسلام الى تقريرها أيام كان الناس يبحثون عن السعادة فى سكنى الجبال وبالزهادة الكليه أو بالافراط فى الملاذ البدنيه واطراح كل مزية فكريه . ولنتكلم على ذلك ببعض تفصيل فنقول

﴿ مطالب النفس ﴾

ان من يتدبر بعين البصيرة فى أحوال الخلق يرى العجب العجاب فى تباين فطرهم وتخالف استعدادهم فيرى هذا معتدلا وذاك مفرطا وذلك مفرّطا وبين هؤلاء درجات لا يحصيها الا خالقها وكلهم متباينون فى الاعمال والاعتقادات متخالفون فى الملكات حتى لا يمكن التوفيق بين فؤادين كما لا يمكن الجمع بين ضدين . كل ذلك مع وحدتهم فى النوعية واشتراكهم فى الانسانية . أما اذا ترى هذا التخالف الشديد بين أفراد النوع الانسانى أليس هذا دليل محسوس على ان هناك أمراضا واعراضا قد تعترى النفوس البشرية فتشوه من صورها المعنوية كالامراض والاعراض التى تنتاب الاجسام فتشوه من صورها المادية . ثم اذا رأيت ان لاهيا أقلع عن لهوه وغويا ارتدع عن غيه بتأثير موعظة أو رهبة أليس فى هذا دليل واضح على ان أمراض النفوس قد تزايلها اذا صادفت علاجها الحقيقى . نعم ان النفس تكون فى مبدا أمرها طفلة مستعدة للانصباب فى كل قالب فان منحت مربيا حكيما فى أول نشأتها شبت على حسب تعاليمه نفسا حكيمة زكيه وان منيت بمرب مهمل أو تركت لرحمة المؤثرات الرديئة نشأت نفسا شريره تورد صاحبها الموارد المشينه وتوقفه المواقف المهينه . وعلى هذا فيكون حال النفس من حيثية قبولها المرض والمعالجة مثل حال الجسم سواء بسواء ولو كانت الامراض والمعالجة بالنسبة للنفس المعنوية متباينة لأمثالها بالنسبة للجسم المادى .

الآن سهل علينا التكلم على كيفية تربية النفوس وحفظها من الامراض وطريقة جعلها صالحة لتأدية وظيفتها . فما هو السبيل الى ذلك . لا سبيل اليه الا بأربعة أمور . (أولا) تطهيرها من أدناس الأوهام . (ثانيا) تهذيبها بالمعلومات الصحيحة (ثالثا) تعويدها على مكارم السجايا . (رابعا) تصحيح اعتقادها . ولنفرد لكل من هذه الامور الأربعة فصلا مخصوصا فنقول .

تطهير النفس من الأوهام

قلنا في السابق ان المشابهة تامة بين قواعد حفظ صحة النفس و بين قواعد حفظ صحة الجثمان . والآن نقول ان أول أمر يجب أن يعتني به الانسان لحفظ صحته الجسمية هي تطهيره دائماً من أوضار الادناس التي لا تفتأ تعتريه في أثناء تأدية وظائفه الحيويه وانه لو اهمل ذلك التطهير لافضى به الامر الى طروء المرض على جسمه وانهاكه تدريجاً القواه حتى ينتهي امره بالموت . اذا تقرر هذا نقول ان الاوهام الفاسدة والاباطيل الكاذبة هي بالنسبة الى النفس مثل الاقذار بالنسبة الى الجسم فيجب الاهتمام بازالتها بالوسائل الفعالة قبل أن تتراكم على النفس فتمرضها وتجعلها غير صالحة لتأدية وظيفتها . فقد شوهد أن خرافة واحدة قد تلم بالنفس فتمنعها من التمتع بمزايا كثيرة أخرى . وحرمانها من هذه المزايا يؤدي الى حرمانها من لوازمها فتقع في امراض يعبر عنها بمثل الجبن والحقد والبغض وهي الامراض التي يضحي فلاسفة الاخلاق كل اوقاتهم للسعي في ازالتها حتى انك لتراهم يحذرون الكافة من الوقوع في اشراك الخرافات كما يحذرونهم من الابتعاد عن أنياب الاراقم ومخالب الضراغم مبرهنين لهم أن كل الفساد الذي طرأ على العالم في القرون الخالية كان بسبب احنائهم رؤسهم لكل ما يقال و باتباعهم كل ما يرسم امامهم بدون برهان ولا دليل .

سبقهم الاسلام الى تقرير هذه القواعد فحذر متبعيه من الوقوع في ارهاق الاضاليل وأراهم أن أكثر ما يدعو الناس اليه يزري بالعقل و يبعد عن سبيل الحق فقال تعالى (وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) وقرر أن الانسان سيقف غداً بين يدي الله فيسأل عما حمل نفسه اعتقاده من الاباطيل التي لم يقوها الدليل ولم يصحبها البرهان فقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا) ثم حكى لنا حال الضالين وأرانا أن ضلالهم هذا نتيجة اتباعهم للظنون والاوهام وحكم عليهم بانهم أهله

من سوء المنقلب فقال تعالى (وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيأ ان الله عليم بما يفعلون)

تهذيب النفس بالعلم

قلنا فيما سبق انه يجب تطهير النفس من الاوهام كما يجب تطهير الجسم من الاقذار والآن نقول ان التطهير المادى كما يحتاج الى مطهر خال من الجراثيم المرضيه وآت من المنابع الصحيه كذلك تحتاج النفس الى مطهر يطهرها من أوهامها ويخلصها من أقذار وساوسها وهذا المطهر الخالى من المكاريب هو العلم المثبت بالتجربة المستدل عليه بالمحسوسات ❊ هذا أمر واضح لا يمترى فيه العقلاء وأول من سنه فى العالم المتمدن هو ديكارت الفيلسوف الذى كان عائشا فى القرن الثامن عشر ومن ذلك الحين جرى العمل بمذهبه فى تمحيص المسائل العلمية الى الآن

سبق الاسلام كافة البشر الى تقرير القواعد الحقة لضرورة تطهير النفس وتهذيبها بالعلم والحكمة كما كان السابق الى الحكم بلزومه للجنسين الذكور والاناث معا فقال عليه الصلاة والسلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وقال عليه الصلاة والسلام (أطلب العلم من المهد الى اللحد)

هذا ولم يترك الاسلام بابا تنساب منه الاباطيل الى العلم الا سده ولم يسم الشيء علما الا اذا قواه الدليل وقامت عليه الحجج الناطقه فقال تعالى (ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون)

صرح القرآن الكريم بان كثيرا من الخلق تحسن لهم اهواؤهم تلبيس الحقائق لحاجة فى أنفسهم وحذر من السقوط فى مخاتلهم ووسمهم بانهم المعتدون الذين يجب أن يلفظوا لفظ النواة ويعاملوا بما هم أهله من الاقصاء ❊ فقال تعالى (وان كثيرا من الناس ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ثم حكى لنا حال الذين

يتابعون أهواءهم ويتبعون أفكارهم فانذرهم بسوء المصير وشر المنقلب وقرر بأن لن يغني عنهم قولهم انهم مقلدون لسواهم فقال تعالى (واذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار)

يصيح الاسلام في الناس صيحة توقظ الراقد وتبعث الصاحي مبرهنا لهم أن ضرورة العلم ليست قاصرة على الحياة الأخرى فقط ولكنها تسرى على أحوال الحياة الدنيا أيضا قائلا لهم ان صلاح الشؤون الدنيويه وقوام الاعمال الحيويه لا تتأتى الا به قال عليه الصلاة والسلام (من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم)

يرمي الاسلام المقصرين عن طلب العلم بأشد ما يرمى به مقصرا في واجبه ناعيا عن مطالبه قال عليه الصلاة والسلام (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا عالما أو متعلما) وقال عليه الصلاة والسلام (انه لا خير في العيش الا لعالم ناطق أو سامع واع)

ينذرنا الاسلام بأنه سيأتي زمان يروج فيه سوق الالحاد ويرمى الاسلام عما ليس فيه وينشأ فيه من العلماء المنافقين من يدسون الأباطيل الى الدين ليهدموا صروح الاسلام ويقوضوا من أركانه بأنواع الحيل الجدلية التي تدق على غير الواقفين على حقيقة الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم (ستكون بعدي فتن يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا الا من أحياه الله بالعلم) .

الاسلام يصرح لنا أن الجهل والاسلام ضدان لا يتفقان وان التدرج في فهم القرآن مرتبط بازدياد العرفان وان الراضي بالجهالة يكون راضيا باستمرار جهله بكلام ربه المقصود منه تربيته وتطهير نفسه وفي هذا من الخسارة ما لا يقدره الحاسبون قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وقال عليه الصلاة والسلام (وهل ينفع القرآن الا بالعلم)

هذا هو مقدار تشريف الاسلام لمقام العلم والحث عليه وقد رأيت انه أشد تأثيرا

على النفس وأكثر تحريضا لها من كل ما سمعه من قادة المدنية ونصراء التنور (ومن أحسن من الله حديثا)

﴿ تأديب النفس بمكارم الخصال ﴾

يعلم كل انسان ان للنفس أميالا تشعر بها وتنفعل بها ولا تستطيع الانفكاك عنها كما يوجد للجسم احتياجات يجب امتناعه بها لحفظ موازنته وعدم الاضرار بكيانه • فكما ان الجسم يشعر بالجوع والعطش والبرد والحر وغير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية مما يجب الاهتمام باعطائه حاجته منه أو وقايته من تأثيره كذلك تشعر النفس بحاجتها الى أشياء وهى وان لم تكن جوعا ولا ظمأ ولا بردا ولا حرا الا أنه لا فرق بينها وبين الجسم فى الاحتياج الى أخذ ما يقوم بحياتها منها •

نعم للنفس أميال ومطالب وهى وان كانت لا تحصى فى صورها ولا تحصر فى أشكالها الا أنها دائرة على محور واحد ألا وهو ميلها الفطرى الى نوال كمال تشعر به فى صميم فؤاد ولا تستطيع التخلف عنه الا أن تموت بحسرة •

اهتم عقلاء العالم من القدم بتهذيب أخلاق النوع البشرى ولهم فى ذلك اقاويل يضيق المقام عن ايرادها ولسنا نكلف أنفسنا اقامة الدليل على عدم صلاحيتها الا بإستلفات النظر الى أحوال الامم العظيمة ذات الشهرة التاريخيه • نعم ان أقل نظرة فى شؤونها واتجاه أميالها تدلنا دلالة صريحة على ان قادتها لم يقفوا على الناموس الأعظم فى تربية الاحساسات وتهذيب الطباع وهو ناموس الاعتدال • بل نرى ان منهم من جعل محاسن الاخلاق قاصرة على أمته وأباح ارتكاب الرذائل ضد سواها ويرى هذا الأثر بغاية الوضوح فى كثير من الأمم التى كان لها سلطان قوى على غيرها ولدينا على صدق هذه الدعوى أدلة لا يستطاع دحضها بوجه من الوجوه وهذا كما لا يخفى تفريط فى حق الكمال لا يسكن به الفؤاد ولا

يرتاح له الوجدان ويقطع الطريق على النفوس فلا تستطيع أن تتابع السير الى غرضها الكمالى الذى فطرت مسوقة الى تلمسه وتحسسه . ومنهم من أفرط فى كبح جماح النفس وقرر لزوم قتل كثير من أميالها واحساساتها الدرجة تضييق الذرائع عن تحملها الا لوقت محدود . هذا الافراط كانت نتايجه لا تقل عن نتايج التفريط الذى سبق ذكره فلم يسر على افراد أمة الا وأخل نظامها وقوض أركانها وجر اليها من الفتن الاجتماعية مايطلب علمه من مطولات التواريخ . هذا الافراط فى ترييض النفوس يصادف غالبا فى الأمم التى أساءت فهم دينها ولم تقف عند الحد الذى قرر فى شريعتها الاصلية . نعم لاشك ان من الاديان من جاء آمرا بالزهادة المطلقة والخروج الكلى عن دائرة الأشياء الارضية ولكن غاب عن أهل هذه الاديان ان هذه الديانات لها زمن محدود يستحيل أن يعمل بها بعد مضيه وانها لم يقصد منها الا احداث حادث فى الوجود يراد منه اعداد النفوس لارتقاء درجة نهائية لا يمكن أن تتيسر الا بعد أن يمهد لها الطريق بتهيىء الطبيعة الانسانية لقبولها . وهذه الدرجة الثانية التى ندعى انها غاية ما يمكن الوصول اليه فى تحديد الشهوات والنزعات هى خطة الاعتدال . نعم الاعتدال هو الناموس الاعظم الذى ينبنى عليه قوام كل شئ و يحفظ به كيان كل شئ . أتريد برهانا على ذلك . انظر الى جميع الكائنات السفلية والعلويه من أول الذرة المادية البسيطه الى أكبر نجم فى قبة الفلك ترها كلها ألسنة ناطقة بان الاعتدال مساكها وملاكها وانه به كمالها وانتظامها . نعم الاعتدال هو نظام كل شئ فلا تستطيع أن تعال كمال شئ من الاشياء الا به كما لا يمكنك أن تعزو الاختلال فى شئ الا لفقدانه . لم يبق ريب الآن عند كافة علماء الارض فى ان الاعتدال هو القاعدة التى يجب أن يبنى عليها كل عمل وترد الى حدودها كل حاجة سواء جسمية أو نفسية . ذكر لاروس أحوال طائفة من متعبدين زعموا أن نوال الدرجات الزلفى فى الآخرة لا يتأتى لهم الا بقتل سائر خصائصهم النفسية وحرمانها من كل ماتتوق اليه طبيعتهم بأنواع من الترييض تكل عن احتمالها طاقة البشر ونسب اليهم من الفظائع والامور الوحشية مالا تصدر الا عن مسهم ضربا من

الجنون الشديد ثم قال (هؤلاء المتعبدون الذين يريدون أن يميتوا تأثير الطبيعة عليهم صاروا في الحقيقة ضحايا شهواتهم التي تنهشهم لانهم بدلا عن تنظيم حالة نزعاتهم باعطائهم امطالبها في حدودها المعتدلة أرادوا بجنونهم أن يستأصلوا شأفتها)
كان هذا شأن سائر الامم في الافراط في شهوات النفوس وأميالها أو التفريط في كبح جماحها حتى اسفرت سماء الحق بنور الاسلام وانكشف عن محيا الفضيلة الحقة كل لثام فنزلت آي الله تعالى منددة بالغالين والمقصرين منذرة اياهم بسوء المنقلب في الدنيا ويوم الدين مقررة أصول الاعتدال على قسطاس مستقيم مدعمة قواعد الفضيلة على نموذج حكيم ٠
نظرت الى منازع الانفس نظرة الحكيم الخبير فلم تقرر لزوم قتل واحدة منها بل عالجتها من حيث يعالج الطبيب المريض بارشادها الى ناموس الاعتدال وأرتها ان الزيغ عنه الى الافراط أو التفريط يفضي بالانسان الى مالا تحمد مغبته ولا تسر عاقبته ٠ علمتنا هذه الآي الكريمة ان الله تعالى لم يخلقنا من عالم العدم الى باحة الوجود ليعذبنا بأنواع العبادات الشاقة التي تميت احساسات الانفس وتخرجها عن دائرة الكمال الانساني بل خلقنا ووهبنا كل ماتحس به من العواطف لنبلغ به ماأعد لنا من الرقي النفسي بسيرنا على مقتضى الحكمة الصحيحة وارتنا أن كل ما أمرنا به من أنواع العبادات الجسمية أو القلبية لا يقصد به الاتلاف النتيجة قال تعالى (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)
يصرح لنا الاسلام بأن الغلو في الدين ليس من الامور التي يكلف الله تعالى بها عباده بل انه يتنزه عن ان يحملهم فوق مقدور طاقتهم (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) بل كما يدلنا التاريخ عليه من آثار الغلو الذي أهلك الامم وأبادهم هي من مخترعات أفكارهم قال عليه الصلاة والسلام (اياكم والغلو في الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) تصدى الاسلام لمن يظن ان التهالك في العبادة واضناء الجسم فيها انما يبرهن للخالق جل شأنه شدة الاخلاص فقرعهم

على

على ظن أنفهى بهم الى وصف الله تعالى بغير صفاته الكمالية وانذرهم بان تم الكهم هذا فضلا عن كونه ذاهبا سدى فانه يجر عليهم سخط الخالق وغضبه ٭ قال عليه الصلاة والسلام (من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الذنب مثل جبال عرفة)

الاسلام دين السعادتين وناموس الحياتين لم يقرر فى مبادئه الانقطاع الى التبتل (من تبتل فليس منا) ولا تجنب الحياة الاجتماعية والمسائل الحيويه بالهرب الى رءان الجبال والانقطاع عن سائر الاعمال . كلا . كل ذلك مما ينافى الاسلام و يستلزم غضب الملك العلام ٭ روى ان رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجىء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم ساعة فى بعض مواطن الاسلام خير له من عبادة أحدكم وحده اربعين عاما .)

هذا شأن الاسلام فى الاعتدال فى الدين الذى هو مالك لأزمة النفوس وقائدها الى نعيمها فى الحياتين ولا يختلف عن هذا شأنه مع أميال النفس ومطالبها . فقد قررنا انه لا يأمر بقتل عاطفة ولا باماتة نزعة بل يسعى فى جعلها معتدلة قوية بلا افراط ولا تفريط . فالسخاء مثلا وهو ذلك الخلق المحمود لا يعد فضيلة فى الاسلام الا اذا روعى الاعتدال فيه و بدون ذلك يكون ذنبا يحاسب الانسان عليه قال الله تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ٭ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا .) ثم ما قولك فى التواضع . التواضع هو ذلك الخلق المحمود الذى يرفع صاحبه عفوا الى مقام الشرف والمجد وهو من السجايا التى يحثنا الاسلام على التخلق بها قال عليه الصلاة والسلام (لو كان التواضع فى قاع بئر لبعث الله اليه ريحا ترفعه) ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتأخر عن تحذيرنا من الافراط فيه لدرجة تفضى بنا الى المهانة والصغار وترمينا الى حضيض المذلة والابتذال وينبهنا الى التفرقة بين من من الناس يحسن لديه التواضع ومن منهم يليق الترفع لديه حتى يكون الرجل عنده منها كما هو عقاله وعظ . قال عليه

الصلاة والسلام (ومن لايوجب لك لاتوجب له ولا كرامه * لاتصاحب من لايرى لك من الفضل كمثل ماترى له * اذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم * الكبر على أهل الكبر صدقة وهكذا ترى الاسلام مع تعليمنا بقدر مكارم الاخلاق وبتأثيرها على مرا كزنا فى الحياة الأخرى يرينا جادتها الحقيقية وخطتها الحكيمة حتى لايكون الانسان حلوا فيؤكل ولا مرا فيلفظ كما هو معنى حديث شريف وهو الامر الذى ينافى شؤون الحياة الاجتماعية ويعطل من رقيها كثيرا .

قل بابيك مايكون شأن الطغاة فى أمة أفرطت فى السجايا المحمودة وأخرجتها عن حدودها المعتدلة والى أى نقطة تصل شرة المعتدين اذا صادفوا عند كل جريمة عفوا وبازاء كل رذيلة سماحا أماتكون النتيجة تمادى الباغين فى بغيهم واخلالهم بسببات الامن والطمأنينه . أماتكون النتيجة حرمانهم من التهذيب والأدب الامران اللذان لايتمان الا بالعقوبات الرادعه والاحكام الصادعه قال عليه الصلاة والسلام (اقامة حدّ من حدود الله فى الارض خير من ان تمطروا أربعين يوما) .

للحياة الاجتماعية شؤون يضيق كتابنا هذا عن درس بعضها درسا صحيحا وهى تستلزم يقظة من كل عضو فيها وجلدا على تحمل عواديها وفطنة على حل مشكلات دواعيها بل هى الحرب العوان التى يصلاها الانسان من يوم ميلاده الى يوم نهاية حياته . حرب أعلنتها المطالب الجسمية والنفسيه وشبتها الضرورات الحيويه . حرب لامناص منها لمن أراد الكمال وتوسم العلاء فى دار الامال . حرب أذن الله ان يشب لهيبها ويتأجج سعيرها لتبعث النفوس الى اظهار خفاياها وتحضها على استعمال خصائصها وسجاياها لكيلا يكون الانسان تائها عن أسراره ضالا عن عجائب أحواله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) .

هاهى العائلة قل لى بأبيك كيف يكون حال الأدب فيها اذا كان أبوها مفرطا فى

مكارم الاخلاق افراطا يجعله يتجاوز عن كل سيئة تصدر من أطفاله ويعفو عن كل ذنب يحصل منهم . أليس يؤول حالهم الى التمادى فى الغى ونشأتهم على عدم احترام القوى الوازعه التى سيصادفونها أمامهم يوم يكونون رجالا عليهم تكاليف الحياة لاشك ان عائلة رزئت بأب مثل هذا يكون حالها الخلل وشأنها الخطل ويكون ذلك الأب فى نظر شريعة العدل مجرما يجب تنبيهه الى خطة الاعتدال . ان صح هذا فى العائله فهو فى الجمعية أصح واصرح

جاء الاسلام فأنقذ النفوس الانسانيه من شقاء التفريط فى الأميال النفسيه والافراط فيها وخط للبشر خطة معتدلة تلائم سنة الوجود وتناسب قوانين الحياة عما يسمح للنفس أن تنال حريتها الحقه فترتقى فى معارج الكمال بانتظام وسلام . (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)

﴿ تصحيح الاعتقاد ﴾

قد تكلمنا فى فصولنا السابقة على لزوم تطهير النفس من أوضار أوهامها بالمطهر الملائم لها وهو العلم الصحيح واستكنهنا لها سر صحتها وهو قانون الاعتدال فى امتاعها بسائر أميالها وبقى علينا الآن معرفة ماهية سعادتها واطمئنانها فنقول . انا نرى امام أعيننا بعضا من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بانواع العلوم والمعارف ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة لايكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بلذه كأن لهم فى كل لذة ألما وبازاء كل فرح ترحا . يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لاتزايلهم الابزوال عقولهم عنهم بكأس من الرحيق فلذلك تراهم شديدى الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه لانه دواؤهم الوحيد .

ماسر هذا الأرق والضجر مع هذه الصحة الجسميه وتلك الثروة الماليه وهما

الأمران اللذان عليهما (كما يقال) مدار السعادة الانسانيه . ما هذه الحيرة والوحشة الضميريه مع تهذيبهم بانواع العلم وهو كما يزعمون الشافى للناس من نزغات الوسواس . أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائقة لأمر ما وان غاب عن الانسان علمه فقد دله عليه أثره . وأن ذلك الامر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ولا سكنى القصور ولا أكل الصنوف ولا سماع العيدان ولا مغازلة الغيد بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له الا هباء ولا الاكوان بجانبه الا فناء .

ما هو هذا الامر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت وهامت به وسكرت ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد واليك الدليل . ليست النفس من طبيعة هذه الاجسام الصماء ولا من طينة هذه المادة العمياء حتى تأنس الى شيء من أشياء هذه الارض الحقيره أو تهيم بملاذها مهما كانت كبيره بل هى من طبيعة نورانية محضه فلا تأنس الا لنور يجلى عنها ظلمات الاشياء الارضية الكثيفه لتشرف على حضرة القدس المنيفه وتطل على حظائرها الشريفه . النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانيه وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانيه فمهما غالط الانسان نفسه بجمع المال ورفاهة الحال ليرتاح سره ويسكن اضطرابه فان النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ليهتدى الى وضع المحجة . فان تبصر فى أمره واكتنه حقيقة سره وانال نفسه بغيتها من ابلاغها نورها المرجو لها سكن فؤاده وآب اليه رشاده ولو كان جمعه بين القنا والقنابل وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل الى ابلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها وامتاعها بطلبتها من صحة العقيدة السبيل لذلك هو العقل (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) .

العقل فى النوع الانسانى خصيصة من أجل خصائصه ومنحة من أفضل منح الله عليه لو استعمل فيما وضع له واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يدبر الانسان

فور هذا الوجود العظيم على فخامة أجزائه وعظم أبعاده ويستكنه سير النواميس السائدة عليه فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل وعلى تنزه أفعاله عن العبث وصنائعه عن اللهو كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته استدلالا محسوسا لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الانسان أحوال الجمعيات البشريه فيرى نواميس رقيها وهبوطها وأسباب رفعتها وضعتها ويتبصر في أحوال الانبياء الذين أرسلهم الله الى خلقه هادين مرشدين فيستدل بالتدقيق فيما جاؤا به وفى الآثار التى تركوها على معنى النبوة وضرورتها للبشر وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والاحساسات وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الانسان بين أحوال الماضى والحال فيفرق تبعا لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة ويعثر بتعضيد العلم والبداهة على الديانة التى يجب أن تكون خاتمة الاديان كلها وباقية ببقاء النوع الانسانى .

قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الاكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ينطق بلسان الصمت للتبصر ويظهر بلباس الوضوح للتفكر ويجب اليه الانتقال منه الى غيره بدون أن يشعر بملال ولا سآمة ولا يؤوب من استبصاره بندامة . بدون هذا الاعتبار بالعقل لا يأتى للنفس أن تصحح عقيدتها ولا يتأتى لها تبعا لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ولا ننكر أنه قد مضى على النوع الانسانى زمن كان فيه العقل فى دور الطفوليه وكان يكفيه فى الايمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة يعطل من سير نواميسها وقتاما وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل اليهم رسلا يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم وتندهش لها ألبابهم فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة أتباعه وأما الآن حيث بلغ العقل أشده والنوع الانسانى رشده فلا تجدى فيه معجزة ولا تنفع فيه غريبة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلميه فان حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولا ثم اذا ظهرلهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان طائفة الاسبريت فى أوربا تعمل الآن

من الاعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة مالو رآه الجهلاء لظنوا انه من أكبر المعجزات مع أن القوم لا يدعون النبوة ولا يزعمون الرسالة نعم لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك يقال من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الاشياء . ومما يدل على ان هذه القرون الاخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وان كان تهورا منهم الا أنهم مصيبون في قولهم اننا في زمان لا يجدى فيه للاعتقاد الا النور العقلي والدليل العلمي . ومن أقرب الشواهد لذلك ما كتبه المسيو هنري برنجيه في مجلة المجلات الصادرة في ١٥ مارس سنة ٩٨ قال ما معناه . ان العلم والتاريخ قررا بطلان كل هذه المعجزات (معاذ الله) ولكنهما لم يستطيعا أن ينكرا الروح التي بعثت اليها . أما نحن الآن فلسنا بمحتاجين الى معجزة ما فان معجزتنا الوحيدة الخالدة هي هذا العالم العالي الذي لا نهاية له فانه أصلح في ايقاظ احساسنا الديني من كل المعجزات الماضية . انتهى .

لهذه الاسباب جاءت الشريعة الاسلامية تدعو الى السبيل الحق بيدائه العقل وقواعد العلم صارفة النظر عن المعجزات واظهار المدهشات لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلميه على القوة العقليه مالا تؤثره عليها الخوارق لنواميس الطبيعية . نعم جاء الاسلام يخاطب العقل ويحاسب الفكر ويناقش الفطنة فلا يدعو الى الاعتقاد بوجود اله حكيم قادر الامع تنبيه العقول الى الدليل الحسي على ذلك ولا ينفي عنه الشريك ولا يثبت اليوم الآخر الا بتعضيد ذلك بالبرهان وتقويته بالحجة المحسوسه .

علم الله ان كثيرا من ذوي الاهواء في الامم الطامعين في الكبرياء والعظم قد يحسن لهم الطمع ان يدسوا في الدين أشياء يرغمون بها أنوف العامة ويقودونهم بها الى حيث توعزاليهم شهواتهم فقرر في دينه الأخير ان كل دعوة من هذا القبيل يجب أن يطلب الدليل العلمي عليها فانه هو وحده الفارق بين الحق والضلال والمثبط لعزائم أهل البطلان قال تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من

عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وقال تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)

انحى الاسلام باللوم والتعزير على الذين دينهم تقليد آبائهم تقليدا أعمى والجمود على ماورثوه منهم من الاعتقادات الباطلة بدون روية ولا تحقيق فانذرهم بسوء المنقلب وشر العذاب فقال تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون .)

قرر الاسلام بأن حجة الرجل يوم القيامة بأنه انما قلد غيره وتابعه لا تنجيه من غائلة العقاب مادام له عقل يميز بين الخبيث والطيب وبين الضار والنافع قال تعالى (واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)

صرح لنا الاسلام بأبلغ عبارة بأن الحجة القوية وحدها هي عماد الدين ومسائل الاعتقاد فمن فقدها فقد جنى على نفسه جناية عظمى وأوقعها في مصيبة كبرى لأنه يكون بفقدها قد فقد أعظم دعامة يستند عليها يوم الحساب الاكبر قال الله تعالى (ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) . هذه هي قواعد الاعتقاد في دين الاسلام وهي مطابقة تمام المطابقة لما أقر عليه جمهور فلاسفة أمم الارض في هذه القرون الاخيرة من ان كل قاعدة لا يقررها البرهان يجب أن يسحب عليها ذيول النسيان . فقل لي كيف يمكن أن يتطرق الزيغ الى عقيدة مسلم عالم بحقيقة الاسلام بعد أن يسمع نداء الحق في صميم وجدانه يزعه عن ورود الاباطيل ويردعه عن التعلق بالأضاليل قائلا له (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) بل كيف يتأتى لمسلم مهذب أن يجارى الهوى ويتبع كل من خيل وغوى بعد أن ينتقش في جوانح فؤاده ما قاله الله تعالى في وصف أهل التغفل الذين يقبلون الضلال

ويجمدون عليه ويجعلون أنفسهم وقفا على تصديق الخرافات وهو قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) اللهم بصرنا بدينك وهو دين المدنية الحقة وهب لنا من لدنك ثباتا على اتباع نهجه القويم وارفع عن أفكارنا ما تكاثف عليها من صدأ الاوهام انك سميع مجيب (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)

﴿ المطالب الجسمية ﴾

قد أتممنا الكلام على المطالب النفسية ولم يبق علينا الا الكلام على المطالب الجسمية . وهو القسم الذي باتحاده بالقسم الأول وتناسبه معه يتم للانسان الحصول على سعادتيه اللتين يسعى وراءهما من يوم خلقه للآن فنقول : تنحصر السعادة الماديه في أمرين وهما حفظ الصحة والاعتدال في التصرف بمقومات الجثمان فلنتكلم على كل منها في فصل مخصوص

﴿ حفظ الصحة ﴾

قدّمنا في فصولنا السابقة ان صحة العقل وهو المميز الأول للانسان عن الحيوان تتعلق بصحة الجثمان تمام التعلق وأوّل نظرة في أحوال الانسان تقنعنا بصدق هذه النظريه . وقد أدرك فلاسفة العالم المتمدن هذا السر العظيم فتراهم يهتمون جدّا بأمر الصحة اهتماما لا مزيد عليه ويقررون كثيرا من القواعد المقوّمة للبدن والحافظة لقواه يمارسها الطفل مع القواعد المقوية للعقل والمغذية له في آن واحد وجعلوا أهميتها لا تنقص عن أهمية تعليم مبادى العلم في شئ . قرروا كل هذا بعدما زعموا أن الأديان تسعى جهدها في ملاشاة الصحة ولا تعد بالنعيم الأبدى

الامن لوى الكشح عن أمر جثمانه وتهكموا على هذا ماشاؤا مما لا نرى لزوما لاثباته هنا بل نقول سبق الاسلام كافة البشر الى وضع القواعد الصحية الحقيقية المبنية على ارتباط صحة العقل بصحة الجسم وجعلها أساما من أسس الايمان وحمل كافة متبعيه على الاستمرار بها والالتفات اليها كما أمرهم بالالتفات الى غيرها من قواعده ونص بأنها من أكبر المنح التي يهبها الله تعالى للعبد ولا يفضلها في علو المرتبة الا كلمة التوحيد قال عليه الصلاة والسلام (سلوا الله العفو والعافية فان أحدكم لم يعط بعد اليقين خيرا من العافيه) .

ولم يكتف بهذا بل قرر من مباديه الأولى كل ناموس عام لحفظ الصحة وتقويم الجسم مثل النظافة والرياضة الجسمية والعقلية فقال عليه الصلاة والسلام الطهور شطر الايمان * أحب الخيل الى الله اجراء الخيل والرمى * روحوا القلوب ساعة فساعة ...

أما الامراض فان الاسلام يعتبرها عذابا من الله تعالى يبعثه على المريض جزاء له على تعديه النواميس المقررة وعصيانه للقواعد الصحية الثابتة قال عليه الصلاة والسلام (المرض سوط الله يؤدب به عباده) فيجب على المسلم والحالة هذه اذا اصابه مرض اى سوط عذاب من الله تعالى ان يسعى في الانابة الى سبيل الاعتدال في شؤونه الحيويه ولا يتأتى له هذا الا باستشارة طبيب حاذق عالم باصول نواميس الصحة دارس لقواعد الطب قال عليه الصلاة والسلام (تداووا يا عباد الله فان الله لم ينزل داء الا أنزل له دواء) قلنا طبيب دارس لقواعد الطب لأن الاسلام يحذرنا من الوقوع في مخاتل الدجاجلة وينذرهم بالمسؤلية العظمى قال عليه الصلاة والسلام (من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن) ثم ان عجزت الاطباء عن مداواة العلة بعد ان يبذل الانسان وسعه في التعالج فان الاسلام يبشر الصابر على بلائه باحسن الأجور في الدار الآخرة هذا ودِيننا القويم يعتبر ضعف البنية وقلة القوة من الاعراض التي تؤخر الرجل عن نوال الدرجات الزلفى في الآخرة لأنها غالبا تكون نتيجة الافراط في أمور الحياة

ومقدمات التكاسل عن أداء واجبات الدين ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام (المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف)
الاسلام لا يبيح لأى مسلم ان يتهاون بامر صحته لأى غرض كان حتى فى عبادة ربه والاخبات له روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ألم أخبر انك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت بلى يارسول الله قال فلا تفعل صم وافطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقا وان لعينك عليك حقا وان لزوجك عليك حقا وان لزورك عليك حقا وان بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها فان ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد على قلت يارسول الله انى أجد قوة قال فصم صيام نبى الله داود عليه السلام ولا تزد عليه قلت وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام قال نصف الدهر وكان يقول بعد ان كبر ياليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم لاشك ان كل هذه القواعد تجعل المسلم شديد التحفظ على صحته كثير الغيرة عليها وهذا الغرض الذى يسعى فلاسفة هذا القرن ان ينقشوه فى أذهان العامة حتى يهتموا بالنظافة والصحة فتقل الامراض وتخف آثار العدوى

﴿ الاعتدال فى مطالب الجثمان ﴾

يعلم كل انسان ان للجسم مطالب كثيرة وكلها ضرورية للحياة على شريطة الاعتدال فيها فالغذاء وهو أول المقومات الجسمية قد ينقلب ضربة قاضية على الحياة اذا استعمل بافراط او اذا لم تراع فيه القواعد الصحية كجمع المتعاكسات من المواد الغذائية ولهذا فقد أجمع عموم أطباء العالم على ان ملاك الصحة الانسانية هو الاعتدال فى الشهوات الجسمية وبهذه القاعدة الرئيسة جاء الدين الاسلامى فلم يحرم علينا شيئا من الطيبات قط بل أباح لنا الاكل والشرب من كل شئ صحى ولكن بشرط عدم الاسراف قال تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق كلوا واشربوا ولا تسرفوا)

ليست الزهادة في الاسلام بالتأثم عن لذائذ المآكل ونضيج الفواكه وحرمان النفس من كل ما تشتهيه . كلا . فليست مقرراته مثل هذه الزهادة التي قد تنافي الحياة الاجتماعيه وتهدم صروح المدنيه . كلا . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون)

في هذه المناسبة نقول ان ديننا القويم كما لم يحرم التمتع بلذيذ المآكل كذلك لم يمنع التحلي بجميل الملابس قال عليه الصلاة والسلام (ما منع أحدكم أن وجد سعة من المال أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته) ولم يكتف ديننا الحنيف بهذا بل يرغبنا في التجمل والتزين اذا لم يقصد به ريبة بل قصد به ارضاء الخالق جل وعلا في اظهار نعمته والتحدّث بكرامته قال عليه الصلاة والسلام (من كان له شعر فليكرمه) أي يسرحه وقال عليه الصلاة والسلام (ان الله يحب كل جيد الريح جيد الثياب) وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة قال ما مالك قال من كل المال قد آتاني الله تعالى فقال ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر الى أثرها عليه .)

الواجبات العائلية

للعائلة في الجمعيات المتمدنة شأن خطير ومقام كبير فانها بالنسبه للجمعية الكبرى كالافراد بالنسبة للعائلات الصغرى فاذا صلحت الثانية صلحت الأولى والعكس بالعكس ولذلك ترى فلاسفة الامم خصوصا في هذا القرن يوجهون أكبر همهم الى اصلاح شؤونها وتعليم العامة كيفية اقامة أودها بالطرق العلمية المثلى . أما كنه هذه السعادة العائليه فينحصر في أمرين رئيسين وهو اصلاحها أدبيا وماديا وهذان الامران منوطان ولا شك برئيس العائلة ومطلوبان منه كأكبر واجب تقضي به شريعة المدنية الحقيقية من هنا نلقي على عاتق أب العائلة واجبين يفرض عليه تأديتهما على حسب ما تحكم به سنن الحياة . فنقول

الواجب الاول اصلاح حال العائلة أدبيا

أداء هذا الواجب من الرجل لعائلته يستلزم أمرين رئيسين أحدهما اعتباره امرأته شريكة له فى الشؤون العائليه واعطاءها حقها من التجلة والتكريم . ثانيهما اعتبار نفسه قيما على أطفال سيكونون غدا أرباب عائلات مثله وأعضاء لجمعية لها مقام فى الوجود تؤثر عليها تربية افرادها ان خيرا فخير وان شرا فشر وان هذه الجمعية قد ينشأ فيها فرد يرفع مجدها الى عنان السماء وقد ينشأ فيها آخر يدهورها الى حضيض الذل والشقاء وان مناط كل ذلك هو التربية فى سن الطفوليه على المبادى القويمه أو السقيمه . وان الأب أحد المسؤلين عن كل جريمة تصدر من أحد افراد عائلته التى رباها فى حالة ما اذا كانت تلك الجريمة صادرة عن سوء ادارته فى التربيه والتهذيب . بهذه الامور جاءت شرعة المدنيه الجديده وعليها بنيت كل نظريات التربيه العائليه .

نقول سبق الاسلام كافة العالمين الى تقرير هذه المبادى القويمه فقال من حيثية عدم اهانة النساء والحث على اكرامهن واحترامهن بلسان النبى عليه الصلاة والسلام (ما أكرم النساء الا كريم ولا اهانهن الا لئيم) و (احملوا النساء على أهوائهن) وفى قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) دليل جلى على ان للمرأة شطرا عظيما من تربية اطفالها وتهذيبهم وأما من جهة انطباق الاسلام على ما جاء فى الامر الثانى فيكفى فيها هذا الحديث الجامع (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) بهذا النص الصريح صار الأب مسؤولا عن أعضاء عائلته فردا فردا ومفروضا عليه تعويدهم على مكارم الخلال وشرائف الخصال لكى لا يؤخذ بجريرة الاهمال يوم يوجه اليه هذا المقال (ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك) حديث قدسى

﴿ الواجب الثانى اصلاح حال العائله ماديا ﴾

ان ماتكلمنا عليه من ضرورة اصلاح حالة العائلة أدبيا يتعلق كل التعلق باصلاحها ماديا وذلك لان أول ضرورة يشعر بها الانسان هى ضروة حفظ جثمانه من التلاشى فاذا لم يسهل لديه الحصول على هذه الضرورة كما يجب لم يجد من نفسه قط باعثا على السعى وراء شئ أدبى مطلقا . وفى الواقع ماذا يكون أمر عائلة لا تجد من الغذاء الصحى ما يقيم سلامة أجسامها ويحفظ على افرادها قواهم العقليه والبدنيه ولا من المسكن ما يقيهم عوادى الامطار والاعصار ولا من الملبس ما يحفظهم من اعراض الجو الجتاحه . أليس يؤول أمر عائلته مثل هذه الى أخس درجات التوحش فتحسن الضرورات لافرادها كثيرا من الدنايا النفسيه والخسائس المزريه مع علمك بأن الاحتياج أبو المفاسد الاخلاقيه . ثم ماذا يفيد العائلة اذا وجدت غذاء جيدا ومسكنا وملبسا كافيين ولم يجد أبوها مالا كافيا ليقضى به ما يجب عليه من اصلاح حالة عقول افرادها بارسالهم الى المدارس وايجاد المربين لهم فى كل ما تحتاج اليه الحياة المدنيه أليس يتضح من كل هذه الملاحظات الحقة ان العائلة تحتاج الى من يصرف عليها بسخاء وان قلة مال أبيها قد يوقعها فى أسوإ حالات الشقاء . نعم وبهذه القواعد المدنة جاءت الشريعة الاسلاميه السمحاء . قال عليه الصلاة والسلام (ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله) وقال عليه الصلاة والسلام (ما أنفقه الرجل فى بيته وأهله وولده وخدمه فهو له صدقه) وليس بعد هذا ترغيب فى الصرف على العائلة . ومما يدلك على ما للعائلة من الشأن الخطير وما للصرف عليها من التأثير الكبير فى نظر ديننا الحنيف ما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف (دينارا أنفقته فى سبيل الله ودينارا أنفقته فى رقبه ودينارا تصدقت به على مسكين ودينارا أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك) نعم ان الاسلام لا يأمرنا

بالتقشف المعروف عند العامة من حرمان النفس من كل شئ وجعل المعيشة على درجة من الشظف يعسر معها كل تهذيب أخلاقى ويعرض النفوس يوماما الى كسر قيود الدين بالمرة كما حصل ذلك فى كثير من الامم بل انا نرى الدين الاسلامى يأمرنا بالسعى فى اصلاح حالة معيشتنا جاعلا ذلك الاصلاح شطرا منه قال عليه الصلاة والسلام (ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب مايصلحك) ولكن كيف يتأتى للرجل استصلاح معيشته اذا لم يكن ذا عمل يستغله أو مهنة يتكسب منها لاشك يجب علينا أن نتكلم على مقام المال والعمل فى الاسلام لنبطل حجة القائلين بأن الاديان تكره العمل للانسان فنقول والله المستعان

﴿ مقام العمل والجد فى نظر الاسلام ﴾

ان أول نظرة فى حالة الجمعيات المختلفه التى تتنازع البقاء الآن على سطح هذه الكرة تدلنا دلالة محسوسة على أن أسبق هذه الامم كلها فى مضمار الفوز بحاجيات السلطه والعلاء هى الامة المركبة من افراد ألفوا الكد والعمل وتركوا الجبن والكسل . وعلى هذا فيجب ان يحسب العمل من ضمن القواعد المهمة الممدنه لافراد النوع البشرى والحافظة للامم حياتها واستقلالها . نعم هكذا يعتبره علماء العمران الآن ولاجله ينددون على الاديان زاعمين انها تحبب الكسل للانسان وتقذف به الى حضيض الهوان .

نحن لايهمنا فى هذا الكتاب الاتبرى الاسلام من هذه التهمة الفاضحة واثبات انه من أقوى العوامل فى الترغيب الى الجد والعمل وان قواعده من أشد القواعد تنفيرا من الكسل . أجل . الاسلام يرشدنا الى الجد فى العمل للحياة الدنيا بقدر مايرشدنا الى الجد فى العمل للحياة الاخرى قال عليه الصلاة والسلام (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) وقال عليه

الصلاة والسلام (اصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا) فى هذين الحديثين رد على الذين توهموا ان صلاح الدنيا أمر يغضب الخالق جل شأنه ويستوجب سخطه عليهم فنبذوها نبذ النواة ومحضوا أنفسهم للتعبد والزهادة باضناء الاجسام وانضاء العقول ولم يعلموا أن الدنيا دار حرب وهيجاء وان القائم فيها يغلب القاعد ويستعبده فيحرمه كل حقوق الحياة وان الطبيعة البشريه لاتلبث حتى تقيم الحجة على مهملى أمرها فينقلب تعبدهم الموهوم فسقا وتنسكهم اجراما . هذا أمر دلنا عليه تاريخ الاقوام التى أفرطت فى كراهة الاشياء الدنيويه وفرطت فى حقوق ضروراتها الحيويه بسوء فهمها لنصوصها الدينية فلم تلبث ان لعبت بها أيدى الغوائل الطبيعيه فارتكست الى أسوإ حالة من الفسوق لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منها رعبا .

أما الديانة الاسلاميه وهى ديانة آخر أدوار الانسانيه فلم تقرر فى مباديها امثال تلك العبادة التى كان يقصد بها معالجة نفوس تلك الامم الصخريه بل قرر ان كل عمل يكون مناسبا لسنن الحياة وملائما للنواميس التى تعلى شأن العائلة البشريه وترفع أميال النفس عن حضيض البهيميه يجب ان يعد عبادة خالصة لله تعالى اذا قصد به وجهه الكريم لا اشباع نهمة الشيطان الرجيم .

ولما كان كسب المال لاقامة أود الفرد والعائلة والجمعيه والنوع الانسانى بامره هو من الامور التى تساعد على الوصول الى الغاية التى حددها الله لهذا النوع قرر الاسلام انه من أفضل ما عبد به الانسان ربه قال عليه الصلاة والسلام (أفضل الاعمال الكسب الحلال) وقال عليه الصلاة والسلام (من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء) ولا تحسب ان الاسلام يرغبنا فقط فى التكسب والعمل بل يفرضهما علينا فرضا ويؤاخذنا على تركهما مؤاخذتنا على اهمال أمر لازب . قال عليه الصلاة والسلام (طلب الحلال فريضة على كل مسلم)

أما المال وما أدراك ما المال فهو فى نظر الاسلام من أكبر مقومات حياة الامة ومن اعظم دعائم الارتقاء لها . قال عليه الصلاة والسلام (سيأتى على أمتى زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه) هذا وقد كان بين أصحاب رسول الله من الاغنياء ما يكفى مالهم لتجريد حملة عسكرية كما حصل من عثمان رضى الله عنه وهل بعد مدح النبى صلى الله عليه وسلم للمال الصالح فى قوله (نعم المال الصالح للرجل الصالح) يقال ان دين الاسلام ينافى الاثراء خصوصا فى مثل هذا الزمان الذى أخبرنا عنه صلى الله عليه وسلم . نعم نحن فى زمان يجب علينا فيه أن نظهر أوامر ديننا القويمة فى الجدّ والكسب حتى تنشط الانفس من عقال خمولها وتمحى تلك الظنون الفاسدة التى يهمس بها بعض من ينتحلون لانفسهم وظيفة التهذيب والتعليم فان العامة صارت الآن لا تسمع من ارشاد الدين الا ما ينفرهم عن العمل و يبعدهم عن التكسب و يحبب اليهم القنوع والتقشف وهو ارشاد لم تراع فيه الحكمة النبوية من مداواة القلوب باوفق علاجاتها . أما والعلم لو كان النبى صلى الله عليه وسلم أمر الناس بكراهة المال وترك العمل ولو بقدر جزء من مائة مما يفعله اليوم بعض المعلمين لما وجد فى الصحابة من علك شروى نقير لانهم رضوان الله عليهم كانوا أطوع الناس لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فانا نرى الامر بخلاف ذلك على خط مستقيم وها هى أوامر الله تعالى فى كتابه الكريم حاثة على الكسب وها هى السنة الشريفة داعية اليه باكثر مما نرى فى كتب مدنية هذا العصر . قال الله تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا * فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال عليه الصلاة والسلام (نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة) وقال عليه الصلاة والسلام (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه) وقال عليه الصلاة والسلام (طلب الحلال جهاد)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة و يغنيها عن

الناس فهو فى سبيل الله وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فيغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله وان كان يسعى تكاثرا وتفاخرا فهو فى سبيل الشيطان)

يظهر من هذا الحديث الشريف ان كسب المال تابع لنية الكاسب فان قصد به الفرض الحق كان مأجورا وان قصد به دنايا الاميال وخسائس الاعمال كان موزورا ولو كان وجه المكسب حلالا قال عليه الصلاة والسلام (من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر) هذا هو القول الفصل فى هذا البحث

* بقى علينا هنا أن نتكلم قليلا على ما يستشهد به بعض المثبطين بقول ان الرزق مقسوم وأن الكد قد لا يغنى فتيلا . أما نحن فاول المعتقدين بذلك ولكنا لا نجترئ على اكتناه ما استأثر الله بعلمه ولا نحاول التنقيب عن عالم الغيب فما يدرينى أن كدى هذا قد يحقق لعلم الله السابق وملى ولا تارة هذه الافكار التى بسوء فهمى لها تصدنى عن الشغل والاجتهاد وتلفتنى عن منهج الرشاد . كلا ان الشريعة الاسلامية جاءت بقوانين الحياة المشاهدة المحسوسة وفى تعاليمها ما يدل الانسان على ذلك دلالة بينة • قرر الاسلام ان الله سبحانه وتعالى يقسم رزقه بين عباده على حسب تفاوتهم فى الجد فمن كان جده أكثر كان حظه أوفر والعكس بالعكس وهذه هى القاعدة التى تبعث الناس الى التسابق فى ميدان هذه الحياة باطمئنان على نوال مكافأة التعب قال عليه الصلاة والسلام (ان الله يعطى العبد على قدر همته ونهمته)

يصرح الاسلام بلسان فصيح ان الاقدام والهمة فى كل أمر هما ملاك النجاح ومسالك الفوز وان الخمول والطأة هما سبب الحرمان وأصل الفاقة قال عليه الصلاة والسلام (التاجر الجسور مرزوق * التاجر الجبان محروم)

ينادى الاسلام متبعيه قائلا ان للحياة قواعد ثابتة ونواميس معينة فمن عارضها عارض ارادة الله تعالى ومن وفق أعماله على نهجها نال بغيته وفاز بطلبه وان الرزق والكسب منضويان هما أيضا تحت هذه النواميس المقررة فمن خالفها حرم

ومن لامهار زق وأن من أهم نواميس الكسب التبكير لحاجة والجد فيها قال عليه الصلاة والسلام (من جد وجد ولكل مجتهد نصيب * الصبحة تمنع الرزق) وقال عمر بن الخطاب وهو أحد من يجب الاقتداء بهم (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) ومع كل هذا فانا نستطيع أن نسكت كل معارض ونفحم كل مجادل في السعي على الكسب والجد وراء الامل بقوله صلى الله عليه وسلم (اسعوا فان السعي كتب عليكم) هذا والاسلام يحبب الى متبعيه الذين يعسر عليهم الكسب أن يهاجروا الى حيث تسهل لهم المعيشة وتلين الحياة هربا من الفقر الذي يقول عنه سيد الوجود (كاد الفقر أن يكون كفرا) وتحاميا من أن يكون الانسان عالة على غيره . نعم الاسلام يبعث ذويه الى السعي في طلب قوام الحياة ولو باقتحام الاسفار ومواصلة التسيار وخوض العباب وتجشم الاوصاب قال عليه الصلاة والسلام (من أعيته المكاسب فعليه بمصر الخ * من تعسرت عليه التجارة فعليه بعمان * سافروا تصحوا وتغنموا)

على هذه السنن البينة سار أصحاب سيد الوجود قال الامام أحمد وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام (يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم) . هذا ومن يتدبر تاريخ الصحابة والتابعين يرى مثالا لهمة واقدام وعزم يحق للنوع الانساني أن يفتخر به حقيقة وأن يتوق للوصول الى بعضه . يرى ماذا . يرى شرذمة قليلة كانت منزوية بين الشعاب والهضاب وهي من الفقر والفاقة بمكان لا يساويها فيه غيرها من الامم قامت تنفض عن رأسها تراب الخمول والضعة ائتمارا بأمثال ما قدمنا من الآي الكريمة والاحاديث الشريفة ولم تزل واضعة اياها نصب عينيها حتى بلغت في مدة ثمانين سنة من الملك وسعة السلطان وامتداد دائرة النفوذ ما لم تبلغه دولة الرومان في مدة ثمانمائة عام ، بلغت هذا الملك كله وأخضعته لسيطرتها بطريقة تقرب أن تكون طوعا لا كرها اذا قيست بما كان يستعمله الرومان من ضروب القسوة والوحشية واضطهاد المذاهب الدينية . طالع تاريخ القرن الاول من الاسلام تر بعينيك من عجائب الهمم ما لا نستطيع أن نصفه هنا ولو بوجه عام مما لا تعدهم متمدني

هـذا العصر بجانبها الا كسلا وجبنا . اذا كان الامر هكذا فاين ذهبت الآن تلك الشهامة القلبية والهمة الاسلامية ثم كيف حل محلها العجز والخور حتى عن نوال ما كان شائعا عند نساء اسلافنا من مكارم الخلال وشرائف الخصال

لم يكف الامة الاسلامية ماهى فيه من الاستكانة حتى قامت بلسان بعض مرشديها تنسب تلك الحالة الى الاسلام زاعمة أن لها الاخرى ولغيرها الدنيا . كلا . ان للاسلام الدنيا والاخرى معا (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين * ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) هـذا حديث رب الاسـلام (ومن أصدق من الله حديثا)

لا يحزن المسلمون على دينهم باكثر مما فعلوا ولينظروا اليه نظر عقل وروية ليروا أن اكثرهم الآن لا يتبعون الا اهواءهم وأفكارهم ولا يمنعوا علماء المدنية من الالتفات الى الاسـلام عما يدسونه ظلما اليه وليعلموا أنه سيأتى يوم فى مستقبل قريب جدا يظهر الاسـلام فى أوربا برونق يشبه ما كان عليه فى زمن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق * انه كان وعده مفعولا)

﴿ الواجبات الاجتماعية ﴾

لا يخلو أى انسان خصوصا فى العصور المتمدنة من أن يكون . (أولا) عضوا فى جمعية يحكم بقانونها ومشاطرا الاعضائها الآخرين فى المعتقد واللغة والمقتضيات الطبيعية . (ثانيا) يكون مرتبطا بعلائق الوطنية والحكومية مع قوم ينافونه فى المعتقدات والعادات . (ثالثا) تكون جمعيته التى يكون هو عضوا منها مسالمة لاتحاد المصالح لجمعيات أخرى تنافيها فى سائر الحيثيات أو فى اكثرها . (رابعا) تكون جمعيته معادية لجمعية أخرى لاختلاف المسائل الحيوية بينهما . فالثلاث أحوال المتقدمة لا تخلو

منها أبدا جمعية من الجمعيات الكبيرة الحية وقد ينضاف اليها الحال الاخير حينا من الاحيان أو أحيانا كثيرة على حسب أهميتها في الوجود فانا نرى باعيننا ان اكثر الأمم مدنية راهمية تجبرها دواعي الاستعمار والى مواصلة الحروب كل آن حرصا على مصالحها ولو مع قبائل صغيرة

مجرد النظر الى هذا التقسيم يوجب الاعتراف بأنه تقسيم طبيعي لا مناص منه لانه لسان حال كل أمة متمدنة وغير متمدنه معاصرة لنا او بعيدة العهد عنا . نقول الآن ان كل شريعة عادلة يجب أن تضع لكل من هذه الأقسام الاربعة واجبات تنيط رعاياها بملاحظتها امام كل قسم منها بشرط أن تكون تلك الواجبات منطبقة على العدالة الحقه وموافقة لسنن هذا الوجود وهذا أمر لم يتوصل الى اتمامه وتنفيذه على حسب نواميس العدل الحق الى هذه الساعة الا الدين الاسلامي واليك التفصيل والبرهان .

الاسلام يقسم العالم في نظره الى أربعة أقسام كما قدمنا ويحدد بالنسبة لكل قسم منها واجبات خاصة ويفرض على المسلمين رعايتها وملاحظتها . فالناس أمامه تنقسم (أولا) الى مسلمين . (ثانيا) الى ذميين وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يكونون في ذمة الاسلام ومحكومين بقوانينه (ثالثا) الى معاهدين أو مسالمين لحكومة الاسلام (رابعا) الى محاربين له . فلنتكلم الآن على الواجبات المفروض على المسلمين مراعاتها بالنسبة لكل قسم من هذه الاربعة أقسام فنقول .

واجبات المسلمين بالنسبة لبعضهم

يجب على المسلم بالنسبة لسائر المسلمين أن يلاحظ نحوهم كلما تستلزمه الاخوة الحقه مثل المحبة والمساواة في سائر الحقوق الطبيعية والسياسيه . نعم يجب على المسلم أن يعتبر سائر أعضاء الجمعية اخوانا له بصرف النظر عن اختلاف شؤونهم وتباين

أصولهم وألوانهم وأن لا يكون مناط التمايز بينهم الا المزايا الشخصيه والمكتسبات الذاتيه مع جعل هذه الميزة موكولا الحكم فيها الى جانب الخالق جل شأنه وعدم غناءها عن صاحبها امام القانون العادل . أما التحاب بين المسلمين فهو شرط أولى فى شرائط الايمان لقوله عليه الصلاة والسلام (لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا) ونريد هنا ان ننبه أن هذه المحبة يجب أن تكون صادقة خالية من شوائب الرياء والادهان والا صارت نفاقا ان لم ينكشف سره اليوم ففى الغد . ولهذا يجب السعى فى تطهير تلك المحبة وجعلها خالصة كما يسعى لتطهير الايمان من شوائب المكفرات حتى يتم له الحصول عليها ولن يتم له ذلك الا بالتبصر فى مبلغ علاقاته مع بنى ملته وفى نتائج ركونه اليهم أو ابتعاده عنهم وفى عواقب الاخلاص لهم أو مداراتهم بشرط أن يكون عالما بحقيقة الحياة وتكاليفها ليرى رأى العين أن حياته مرتبطة بحياتهم وموته بموتهم . اذا تم له الحصول على هذا التبصر كما يجب يجد نفسه مسوقا رغم أنفه الى اخلاص الحب لبنى ملته كما يكون مسوقا للالتجاء الى حصن شامخ هربا من سيل جارف . هذه المحبة التى يدعو اليها الاسلام هى مناط كل سعادة اجتماعيه وملاك كل مدنية حقيقيه أدرس أحوال الامم المتمدنه وتأمل جيدا فى دقائق أجزائها تر أن أكثر الامم تماسكا بين آحادها وتلاصقا بين أفرادها هى أسبقهم الى مضمار السعادة الحيويه وأقواهم كلمة فى الاحوال العموميه . ترى مثل هذه الامة لا تعثر حتى تقوم ولا تخمد حتى تنشط فبينما تراها مرتبكة فى أمورها الخارجيه ومهددة فى منابعها الحيويه مما يقرب اليك الجزم بقرب سقوطها ووشك انحلالها لا تلبث أن تراها قامت تنفض عن رأسها غبار الارتباك وصاحت بمن يناويها من كل جانب فبددتهم بغير سلاح ورفعت فى سرهم سهم الاقداح . هذا من أسرار التماسك الذى هو نتيجة المحبة وليس ما نراه فى الامم اليوم الا جزأ يسيرا مما كان بين آبائنا الأول فرفعهم الى أوج لم ينله للآن غيرهم وأوصلهم الى مجد لم يرتق اليه سواهم . تم لهم ذلك بعد التقاطع والتنابذ بفضل الديانة

الاسلاميه والعمل بأوامرها السماويه ولو أردنا أن ننقل هنا ماورد فى ضرورة التحاب بين المسلمين للزمنا صفحات كثيرة جدا فنكتفى بايراد حديث شريف يدلنا على نقصان اسلام الذين يدعونه زوراً حالة كونهم لا يهتمون الا بأنفسهم ولا ذهم صارفين النظر عن كل مايعود بالنفع على اخوانهم وهو (ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم) *ولنورد هنا بعض حقائق تاريخيه تدلنا على مبلغ المحبة الاخويه التى كانت موجودة بين افراد الجمعية الاسلاميه الأولى ليتعظ بها ابناء هذا العصر وليعلموا انهم بلغوا منها درجة لا تحصل بين أخوين شقيقين فى هذا الزمان . قال حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار الىّ أن نعم فاذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى الى أن انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت اسقيك فسمع به آخر وقال آه فاشار هشام انطلق به اليه فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات . انظر الى هذه الأرواح الطاهرة التى تشعر ببعضها حتى فى ساعة لا تستطيع الوالدة فيها أن تفتكر فى فلذة كبدها . أنظر الى هذه النفوس الزكية التى تؤثر غيرها عليها فى ساعة هولها عظيم وألمها جسيم ثم تأمل فيما تستلزمه هذه المحبة من الاوصاف التى يفتخر بها هذا الانسان و يدعى استنادا عليها انه أرفع من الحيوان . هل بعد هذا التماسك العجيب بين افراد آبائنا الأول نستغرب بسرعة امتلاكهم لأزمة هذه المعمورة مع قلة عددهم وعددهم . هذه المحبة الحقه كانت شأن كل فرد من الافراد سواء كان أميرا أوحقيرا غنيا أوفقيرا وما كان يصد هذا المركز السامى ماهو فيه من الرئاسة عن اجراء واجبها بدون اخلال بوظيفته . اجتمع مرة قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل عليها (أى واليها) فقالوا ان لنا جارا صوّاما قوّاما يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر

فقال

فقال احملوها فحملوا فقال ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا لكي نعينه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

بسريان هذه المحبة الصحيحة فى الأمة الاسلاميه الأولى تأيدت دعائم المساواة والحرية والعدالة فيها تأييدا لا يبلغ شأوه ولا يحصل بغير الاسلام على جزء منه مما سنتكلم عليه تفصيلا فى فرصة أخرى .

هذا وقد أناط الدين الاسلامى بكل فرد من أفراد المسلمين واجب السعى فى اعلاء كلمة الأمة وتأييد مركزها وقرر أن أعظم عبادة يحبها الله تعالى هى السعى وراء تحقيق السعادة العموميه قال عليه الصلاة والسلام من حديث (ان صبر أحدكم ساعة فى بعض مواطن الاسلام خير له من أن يعبد الله وحده أربعين عاما) وقال عليه الصلاة والسلام (صلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم) وقال عليه الصلاة والسلام (عدل يوم خير من عبادة ستين سنة * من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره * من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين * من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) لا شك أن من يتأمل فيما سردناه هنا من الاحاديث الشريفة يرى بعينيه أن مقصد الله جل وعلا من سن الاديان ليس هو التهالك فى العبادة الجسميه أو التفانى فى الزهادة المضنيه بل قصده تهذيب الجمعيات البشريه وترقيتها الى أوج مدنيتها بسيادة النواميس المدنية على افرادها . ألا ترى أنه يقول ان سماع كلمة حكمة خير من اعتكاف شهرين وان اصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصيام ٥

اللهم ارزق المسلمين تبصرا فى دينهم وهمة لمحو الخزعبلات من أذهانهم حتى يستطيعوا أن يروا الاسلام بالعين التى يجب أن يرى بها فان من يفهم ما نقلناه هنا من الاخبار النبويه يتحقق أن المسلمين الآن بتقاطعهم وتنابذهم وجهلهم قد نبذوا دينهم ظهريا واستوجبوا سخط الخالق باتباعهم لاهوائهم . نعم أن هذه

الاحاديث تدلنا أن التقاطع والتباغض ينافى الاسلام بالمرة بل هو مروق منه فان الله سبحانه وتعالى لم ينزل هذا الدين للافراد بل أنزله لعموم الجمعية فان أكثر أوامره لا يمكن العمل بها الا بالالتئام والوئام لا بالتقاطع والانفصام قال عليه الصلاة والسلام (الاسلام الى الجماعة أحوج من الجماعة الى الاسلام)

نحن لا نحب أن نختم هذا الفصل قبل أن نرى القارئ اللبيب أحكام الديانة الاسلامية بالنسبة للارقاء فان فى ذكر هذه المسألة فوائد جليلة جدا تجعلنا ندرك الفرق الهائل بين العدالة الالهيه والعدالة البشريه فنقول . كلما رأيته من حقوق المسلم على المسلم ينطبق تماما على الارقاء فهم بحكم الشرع اخوان مواليهم للحديث الشريف (اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم الخ) و بناء على هذا فليس لاعظم عظيم حق فى التفاخر على عبد زنجى مسلم مهما كانت صفته . ومما يجمل الاستشهاد به فى هذا الموضوع أن أباذر الغفارى رضى الله عنه كان يناقش عبدا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فغضب منه وقال له يا ابن السوداء فما أتم هذه الكلمة حتى التفت اليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بعمل صالح فوضع أبو ذر عند ذلك خده على التراب وقال للزنجى قم فطأ على خدى . وكان عبد الرحمن بن عوف اذا مشى لا يفترق عن عبيده لتشابه ألبستهم وتشاكل ازيائهم وعدم تقدمه عليهم وروى أن الامام عليا رضى الله تعالى عنه ذهب مرة الى السوق مع رقيقه فاشترى ثوبين احدهما أكثر ثمنا من الآخر فاعطى خادمه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له الرقيق أنت يا مولاى أحق بهذا الثوب فقال له أمير المؤمنين كلا انك أولى به منى لأنك شاب وأما أنا فقد هرمت . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول . ان أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا الزنجى) فانظر بأبيك كيف ساد حب المساواة فى أفكار الصحابة وهم ملوك العرب فى الجاهلية حتى صار مثل عمر لا ينظر الى بلال الزنجى الا من حيث خصائصه لا من حيث لونه ولا اصالته . ولما احتضر عمر ولم يرد تعيين خلف له سمع يقول . لو كان سالم مولى أبى حذيفة (أى رقيقه سابقا) حيا ماجعلتها

(أى الخلافة) شورى . فهل سمعت أيها القارئ فى تاريخ البشر ان حب المساواة والاخاء والحرية ساد فى أمة من أمم الارض الى هذه الدرجة . ان هذه المساواة لم يحلم بها فيلسوف للآن حتى فى آخر القرن التاسع عشر ولا يتصور احد من متشرعى هذا القرن أن من الممكن حدوث هذه المساواة ولا بين أكثر الامم مدنية وعدلا . فمن يلومنى الآن اذا قلت بارفع صوت ان هذه المساواة هى آخر ما يمكن حدوثه بين البشر وأن كل خطوة تخطوها الامم المرتقيه فى سبيل تعميم هذا المبدأ العظيم ليس هو الا تقربا من هذا الأس الاسلامى . ومن يكذبنى اذا قلت ان هذه المساواة الحقه لم تسطر للآن الا فى الكتب الاسلاميه . اللهم أهد المسلمين للتمتع بجمال دينهم وألهمهم ذكرى مؤثل مجدهم

هنا يحتمل أن يسألنا سائل فيقول اذا كان الاسلام كما ذكرت قرر المساواة بين الارقاء والاحرار الى هذه الدرجة واظهر لهم من الشفقة والرحمة مالم يحصل مثله فى تاريخ البشر بامره حتى قرر قتل الحر بالعبد وعدم قتل العبد بالحر فلماذا لم يقرر ابطال الرق ومحوه . فهل كان ابطال الرق أشد صعوبة من ابطال عبادة الاوثان فنجيب أن الاسلام دين عام لم يأت الالأجل أن يتبع ويسار بحسب تعاليمه ولا يصح ذلك الا اذا كانت أوامره ونواهيه ملائمة للطبيعة البشريه التى فطر الناس عليها ومناسبة للبواعث والأميال الانسانيـة التى لامفر من التأثر بتأثيراتها ومشاكلة للنواميس السائدة على الجمعية الآدميه رغم أنفها وعلى غير علم من أفرادها ليرتقى النوع الانسانى تدريجا من حالة البهيمية التى كان فيها الى ذروة المدنيه التى سيلاقيها . هذه النواميس أحس بوجودها فلاسفة العمران مثل (أوجست لكنت) و (هجل) و (سبنسر) وغيرهم لانهم رأوا النوع الانسانى متبعا سلسلة فى الترقيات منتظمة الحلقات لا يمكن تخلفه عنها بوجه من الوجوه رغما عن الفتن التى تعتريه والثورات والمظالم التى تنشب فيه بل قالوا ان كل هذه العقبات التى تظهر للنظر البسيط عوائق وحوائل ماهى الا فواعل تسوق الى الامام وتخرج الانسان من الخلط الى النظام . فكل حكمة يقولها الفلاسفة مهما ظهرت للسامع المجرد سامية

عالية فلا نتصور أن يمكن العمل بها فى كل طبقات الامم الا اذا لوحظ معها سير نواميس التدرج البشرى وتطوره وهيهات أن يصل الحكماء الى سير تلك النواميس بالدقة مهما كانوا مطلعين أو منقبين .

ان من يمعن نظره فى تطورات الانسان وتدرجه فى الترقى الفكرى والمادى يرى بطريقة محسوسة أن كل تطور دخل فيه شعب من الشعوب لم يحصل الا فى الوقت الذى صار فيه الجسم العام للهيئة الاجتماعية متهيأ ومستعدا للدخول فيه . ان نواميس الحرية والمساواة لم تشرق على أفق بعض ممالك أوربا اثمارا بقول فيلسوف أو ساعا لنصيحة حكيم . كلا بل تقدم ذلك مناسبات ومقتضيات هيأت جسم الهيئة الاجتماعية الى قبول شكل آخر غير الشكل التى كانت به . وهذا بحث لو أطلقنا له عنان القلم لأدانا الى تطويل ليس هنا موضعه

بناء على هذه القواعد الاساسية الثابتة جاءت الديانة الاسلاميه مراعية لسير تلك النواميس الطبيعية السائدة على الانسان مراعاة تدهش المتبصر وتبهت المتدبر . فبينما نرى القوانين والقواعد الوضعية التى رقت المجتمعات حينا من الازمنة السابقة صارت الآن مما لا ينطبق أصلا على الاحوال الراهنة نرى بعكس ذلك القواعد الاسلاميه حافظة شبيبتها لم يعترها هرم ولم يعتورها سقم . نراها لم تزل ولن تزال كما كانت تنطبق على كل جمعية وتلائم كل استعداد وقابليه . ذلك لانها هى نفسها تلك النواميس المرقية التى ظل يتحسسها علماء العمران من أول نشأة الانسان للآن . نحن لا نقدم كل هذه المقدمة لنبرهن للعالم أن الرق قاعدة من قواعد الاسلام يجب أن يوجد للآن ولكننا نريد أن نعلل عدم ابطال الاسلام له فى أول نشأته بالبرهان الحسى والدليل المشاهد ولا نرى لأجل هذا دليلا أقوى من نقل قول العلامة لاروس فى دائرة معارفه . قال (أن الحروب أفادت النوع البشرى كثيرا حتى أن أسوأ نتيجة من نتايجها وهى الاسترقاق لم تخل من فائدة كبرى ومزية عظمى . ولا يستغرب القارئ هذا الأمر فان ترقى النوع البشرى قد يأتى أحيانا من طرق لا يظن مجيئه منها . فبالاسترقاق تحررت المرأة من ذل الاسر الذى كانت فيه عند بعلها فانها

كانت

كانت عنده لا تفترق عن الجماوات والبهائم ولما جاء الرقيق رفع عن كاهلها كثيرا من المصاعب التى كانت منوطة بادائها وأسماها نوعا ما فى عين الرجل لان دخول الغريب الى العائلة يقضى على افرادها باحترام بعضهم بعضا امامه . كل هذه المزايا أثرت على المرأة تأثيرا حسنا أهلها الآن ترتقى سلما من التهذيب و بترقى المرأة تحسن شأن النوع البشرى وارتقى تبعا لها الى معارج الفلاح أما الآن فلم يبق لزوم للاسترقاق فان الاعمال قد خفت وطأتها عن عواهن البشر وجاءت الآلات الميكانيكيه فأراحت الانسان كثيرا مما كان عليه فى الأزمنة السابقه) انتهى باختصار .

نقول ولو كانت الديانة الاسلاميه أبطلت الاسترقاق من منذ ثلاثة عشر قرنا لكانت خالفت سنة الوجود وجاءت بأمر يؤخر متبعيها عن الرقى والمدنيه ولكن حاشاها من معارضته نواميس الحضارة فانها أقرته بعد ان حصرته فى دائرة محيطها الحكمة والعدالة وأسبغت على الآسر والمأسور نعما لا يمكن تفضيل أحدهما على الآخر فيها فلم تبحه الا فى الحروب الشرعيه ضد الامم الوحشية الغير اسلاميه بينما كانت الامم الأخرى متبعة فى الاسترقاق طرقا بربريه يأنفها الانسان ويستقبحها الحيوان . ثم لم يكف الاسلام حصره فى هذه الدائرة المحكمة بل جعل للارقاء حقوقا ما كان يحكم بها أحرار الأمم الأخرى فى أكثر الممالك حضارة وتهذيبا . ولو كانت الأمم البربريه تعلم مقدار عناية المسلمين بارقائهم وشفقتهم عليهم ومساواتهم اياهم لأنفسهم لتبدءوا افلاذات أكبادهم عبيدا لهم ولرجوهم قبولهم كما يرجو الأب الشفوق ناظر مدرسة حكيمة ليقبل ابنه فى سلك تلامذته لكى يراه يوما ما آدميا كاملا . وفى الواقع بينما كان أبا ارقاء المسلمين واخوانهم هائمون فى الفيافى والقفار كان هؤلاء فى الجمعية الاسلاميه موضوع الاحترام والتجلة وشاغلون لاسمى المراكز الاجتماعيه فى الادارة والحربيه مثل بلال وسالم وسلمان وغيرهم . اما وحق المساواة والحرية لو علم ملوك السودان ان عمر بن الخطاب الذى كانت تهتز عروش الملوك عند ذكر

اسمه قال لجلسائه ان أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا) لنزلوا عن عروشهم وقدموا أنفسهم أرقاء لهذه الجمعية التى تجعل عبيدها سادتها انظر المزايا هم الشخصية وخصائصهم الذاتيه .

قلنا كل هذا ولكن هل الاسلام أقر الاسترقاق على وجه الاطراد ولم يشر بطرف خفى يفهمه اللبيب انه سيكون يوما ما شرا لاخيرا كما هو شأنه الآن ثم أشار الى ذلك باشارة صريحة يفهمها كل انسان ولا سبيل لتأويلها فقال عليه الصلاة والسلام (شر المال فى آخر الزمان المماليك .)

أنظر ببصيرتك الى هذه المعجزات العلميه وريض فكرك فى الديانة الاسلاميه وكذب ولو بقلبك الطغام الذين ألصقوا بها المشائن الوهميه والمعاير الخرافيه فقالوا انها تعتبر الرقيق حيوانا وتحث على النخاسه وتندب اليها ومفتريات أخرى تليت فى الجامع وتشبع بها كل سامع ولكن لابد للحقيقة أن تظهر وللباطل أن يدحر وللاسلام أن يعرف و يشهر (ولتعلمن نبأه بعد حين)

واجبات المسلمين بالنسبة للذميين أى لاهل الكتاب الذين هم فى ذمة المسلمين

من يتدبر فى تاريخ الانسان من مبدئه الى يومنا هذا يتحقق ان محبته لدينه قد تغلبت فى فؤاده على كل محبة سواها فتراه يضحى نفسه وأهله وماله فى سبيل تأييده ونصره وهو قرير العين منشرح الخاطر . هذه المحبة الدينية فهمها أكثر الاقوام على غير المراد منها وقذفوا بها الى الافراط الهائل حتى حببت اليهم اجتراع كل أنواع المظالم واقتراف انكاء الجرائم تحت حجة نصر الدين وكبح جماح الملحدين . حصل كل ذلك لجهل المتدينين لنواميس الحياة البشريه وقوانين الهيئات الاجتماعيه مما كان له أسوأ أثر فى تاريخ أمثال هذه الامم الحقودة .

أما الاسلام وهو دين المدنية الحقيقية وملاك السعادة الانسانيه فقد اختط لمتبعيه من هذه الحيثية خطة ليس فى مقدور مجموع الفلاسفة عموما ان يقرروا امثالها فى أذهان أممهم ولو بلغوا من السلطان على الافكار أبعد غاية . كيف توصل الاسلام يا ترى الى اقتلاع جذور الاحقاد الدينية من عقول متبعيه بدون أن يقال شيأ ما من محبته فى أنفسهم مع علمنا بأن أكثر الامم محبة لدينها واحتفاظا به هى أشدها حقدا على مخالفيها . انه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها عن قادة المدنيه ولم يقررها العالم العلمى الا من منذ أمد قريب أى بعد ان وقف علماء الانسان والعمران على أسرار النفس وتأثير المدنيه عليها . فبينما كانت رؤساء أكثر الأديان الأخرى يقولون لمتبعيهم . ان الله قد أمر أن تكون العائلة البشرية كلها أمة واحدة متحدة الدين والاخلاق والعادات فاعملوا على تأييد هذا المبدإ ما استطعتم لذلك سبيلا فان اختلاف النوع البشرى يسخط الله لمعارضته لارادته الازلية كان الله تعالى يوحى الى نبيه لباب الحكمة قائلا له وللمؤمنين (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم * ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)

وبينما كان رؤساء أكثر الأديان يأمرون متبعيهم باستعمال أشد الطرق الا كراهية فظاعة لحمل الناس على الدخول فى ملتهم ولو أدى ذلك الى قتل الابرياء وتيتيم الابناء وتخريب العمران وزعزعة أركان السلام كان الله تعالى ينزل على رسوله من سماء الرحمة أى الحكمة قائلا له وللمؤمنين (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر * لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) * وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)

* كل هذه الآيات البينات غرست فى أفئدة المسلمين قاعدتين عظيمتين محتا من

نفوسهم كل حقد ديني ولاشت كل تعصب مذموم • القاعدة الاولى هى فهمهم من منطوق هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى قضى فى سابق علمه ضرورة افتراق العالم البشرى الى جمعيات متخالفة المبادى والغايات متباينة المشارب والاعتقادات فيكون الساعى ضد هذا القضاء الالهى بغير مارسم له عاصيا ربه مستحقا سخطه وغضبه • القاعدة الثانية هى استنتاجهم من هذه الآيات نفسها أن تنكب الناس عن دين الله سببه تفاوت مداركهم فى الفهم واختلافهم فى درجات العقل وأن لاسبيل الى انتشار هذا الدين الابين من أسعدهم الجد بادراك سره وفهم المراد منه ولذلك أمرهم أن يسعوا الى نشر الحقيقة الاسلاميه من بابها وهو الدعوة اليها بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدل الذى لاتكون عاقبته وخيمة على أحد الجانبين إه هاتان النظريتان اللتان يفهمهما المسلمون من كتابهم المبين تجعلهم لاينظرون فى اختلاف الأديان والمتدينين الا أشياء مرادة لله تعالى سبق بها قضاؤه واستلزمتها حكمته ليتم الابداع الذى أراده وقدره لهذا النوع البشرى ويزيدهم رسوخا فى عقيدتهم هذه ما أثبته علماء العمران حديثا من ان اختلاف النوع البشرى ضرورى لا غناء المدنية واستمرارها ولازم لايراد هذا النوع موارد سعادته المرجوة • بعد ان يقرر الاسلام فى اذهاننا هذه المبادى الحكمية يامرنا بالتخلق باخلاق الله فى معاملة اللاوين الكشح عن شريعته فانه سبحانه وتعالى قادر على ان يعاملهم بما لايطيقونه ولكنه لايفعل ذلك بل يعاملهم فى الحياة الدنيا أسوة غيرهم وربما ميزهم عن سواهم اذا كانوا أكثر أهلية منهم لنوال السعادة الماديه • (ومن يرد حرث الدنيا نؤته منها) • نعم يأمرنا الاسلام ان نسدل ستارا كثيفا على معتقدات مخالفينا فى الدين ويحثنا على معاملتهم بانواع الرفق ومكارم الاخلاق قال تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) •
وينهانا عن أذاهم وعما كرثهم ونصب الحبائل لاشارتهم قال عليه الصلاة والسلام

(من

(من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه فقد خصمته يوم القيامة * من قذف ذمياً حدّ له يوم القيامة بسياط من نار) .

هذا ودينا الكريم يلزمنا بمساواتهم بأنفسنا أمام القانون ويزجرنا أشد الزجر عن اهتضام حقوقهم وهو الأمر الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ أي أمة من أمم الأرض . أرني أي أمة تأيدت فيها قواعد العدالة ورسخت فيها أصولها لدرجة تقتل أحد أعضائها عقوبة له على قتله أحد الاجانب عن دينها الرسمي حالة كونها في اوج عظمتها وقادرة على أن تفعل ما أرادت من أنواع المظالم في جانبهم . جاء في التاريخ الاسلامي ان يهودياً اشتكى علياً للامام عمر رضي الله عنهما وعلى كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد المرشحين لمركز الخلافة . فقال له عمر قم يا أبا الحسن فاجلس أمام خصمك ففعل ولكن مع تأثر لاح على وجهه فلما انتهت القضية سأله عمر قائلا أكرهت يا على أن تجلس أمام خصمك قال لا ولكني تكدرت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لي يا أبا الحسن (لأن الكنية تشير الى تعظيم) . قل لي بعيشك هل ورد في تاريخ بني آدم مثل هذه المساواة أمام القانون بين أحد عظماء أمة عظيمة يهتز لاسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوقة غريب عن ديانتها . هذا هو تاريخ الامم جمعاء يخبرنا ان المساواة لهذا الحدّ لم تقرر حتى بين الطبقات المختلفة في الأمة الواحدة الا من منذ زمن قريب جداً مما يحدو بنا الى الجزم بأن هذه العدالة الحقه لم يعمل بها مطلقاً الا في الامة الاسلامية .

كانت العدالة في الامم المتمدنة القديمة اسماً بلا جسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والالقاب اما الشعب ذاته فكان تحت رحمة اهواء سادته الاعلين وقادته الغالين . اما المساواة التي يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهي بنت الثورة الافرنساويه الهائلة التي بيعت فيها المهج بالمجان وصبغت فيها الأرض بالارجوان قال المسيو لاروس في دائرة معارفه (ان العقوبات في روما عاصمة دولة الرومان) كانت تختلف دائماً في الجنايات المتشابهة على حسب اختلاف حالة

المجرمين وحيثيتهم) ثم ذكر تفصيل ذلك الجور وانتقل من قانون الرومان الى قانون الفرنساويين قبل الثورة الفرنساويه وألصق به مثل هذا الخلل فى قواعد العدالة ثم قال (ان ثورة سنة ١٧٨٩ قذفت كل هـذه الامتيازات بنفس الحركة التى محت الالقاب المختلفة التى كانت تابعة لاصالة الشخص أو للوراثه ٠)

فقل لى بعيشك كيف لا يفتخر المسلمون بدينهم اذا تحققوا أن هذه المساواة التى يقول عنها الفلاسـفة انها سبب كل سـعادة اجتماعيه لم تقرر لأول مرة الا فى الجمعيـة الاسلاميه وانها لم تقرر فقط بالنسبة للمسلمين فيما بينهم بل بين أعظم عظيم فيهـم وبين أحقر حقير من غير ملتهم ٠ اللهم انا نعتقد ان هذه العدالة ليست من موضوعات البشر ولم تـكن فى مكنتهم مطلقا قبـل أربعة عشر قرنا بل هى عدالتك التى غمرت كل شئ وسادت كل شئ فنعنا اللهـم بالتدبر فى معجزات دينـك انك على كل شئ قدير ٠

الاسـلام يأمرنا بمعاملة الاجانب عن ديننا ومحاسنتهم ولـكن لا من باب المواربة والمداهنة خوفا منهم أو طمعا فيهم ٠ كلا ٠ بل عن صفاء نية وسلامة طوية حتى انه ينهانا عن اغتياب أحدهم وذكره بما يكره كما ينهانا عن اغتياب أحدنا سواء بسواء ولم يحلل لنا بوجـه من الوجوه نصب الأوهاق لهـم لمصادرة أشيائهم تحت سـتار القانون المموه أو العدالة الوهمية كما فعـله ويفعله كثير من الامم بالنسبة للمخالفين لمعتقداتها ٠

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أعظم اسوة يجب أن نأتسى بها فى معاملة الاجانب عن ديننا ومخالفى معتقداتنا فانه عليه أشرف التحية والسلام كان يحضر ولائمهم ويغشى مجالسهم ويشيع جنائزهم ويعزيهم على مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات الاجتماعيه التى لا بد منها فى كل جمعيـة محكومة بقانون واحد وشاغلة لحيز مشترك ٠ روت السنة الـكريمة ان سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كان يقترض من أهل الـكتاب نقودا ويرهنهم أمتعته الشريفة لا عجزا

من

من أصحابه عن اقراضه فانه كان منهم المثرون وذوو الاملاك الشاسعة وكلهم مستعد لأن يضحى نفسه ونفيسه فى سبيل مرضاة نبيه ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك تعليما للامة وارشادا لها ان الاسلام أكبر وأجل من أن يأمر ذويه بقطع العلائق مع من يعيشون معهم فى مكان واحد • بحجة أنهم مغايرون لهم فى المعتقد وفى ذلك دلالة ناطقة على أن المسلم يستطيع أن يعيش بمفرده فى بلاد أجنبية عن دينه ولا يضره كون أهلها من غير ملته بل ويسمح له أن يتزوج منهم •

ليس فيما بين أيدينا من أسفار المدنية مايرينا ان هنالك فلسفة تهدى الى احترام النوع البشرى بمثل مايهدى اليه الاسلام ويأمر به • تصفح تواريخ الامم سابقها ولاحقها تر بعينيك من آثار قسوة الانسان على الانسان مايحملك على اليأس من سيادة ناموس الاحترام النوعى بين افراد البشر ويجعلك تثق بقول المتنبى

والظلم من شيم النفوس فان تجد ❊ ذا عفة فلعله لايظلم

نعم يرينا التاريخ من آثار ظلم الانسان للانسان ماتقشعر له الابدان ويخجل منه الحيوان وان كل هذه الفظائع كانت تحصل انتصارا للاديان • نحن لانتصور ان دينا سماويا يأمر ذويه بالفتك بمخالفيهم واستئصال شأفتهم بأفظع الطرق ولكننا ننسب ذلك كله الى سوء فهم متبعيها وادخالهم الغش والتدليس فيها لمآربهم الشخصيه وأميالهم البهيميه • قد بلغت تلك الوحشية فى الاكراه لدرجة كانوا يرمون بنى نوعهم طعمة للنار المتأججة أوفريسة للحيوانات الكاسره أو يربطون رجليه فى ذيلى حصانين شديدين ويطلقونهما فى اتجاهين متخالفين أو يصبون على جلودهم القطران والقار الغاليين فى النار أو يعلقونهم على نيران هادئة أياما عديدة ولايهتمون بأنينهم ولازفيرهم فتتساقط لحومهم وتذوب شحومهم • كل ذلك كان يحصل على مرآى ومسمع من الناس فلايجدون من أنفسهم فؤادا يشفق أواحساسا يتأثر • بل كانوا يمرون عليهم متفرجين متشفين قل بابيك أين هذه الصدور المتأججة بالاحقاد المتاهبة بالاضغان التى

تحمل ذويها على استئصال الامم ومحوا سمها لمجرد رفضها ترك دينها من تلك الصدور الاسلامية الرحبة المملوءة حكمة ورحمة المفعمة مروءة وهمة التى كانت تسمع لنواقيس الكنائس أن تدق بازاء مآذن المساجد بدون أن تحرك منهم ساكنا أو تسبب غيظا بينما كانت مقاليد مقادير العالم باسره بين أيدى المسلمين بلا منازع ولا شريك فانهم كانوا يستطيعون ولا شك أن يحجروا على حرية أديان مخالفيهم مثل مافعلت الرومان وغالت فيه ٠

كان الجيش الاسلامى يدخل مكللا بالفخار فى احشاء الممالك المخالفة له اعتقادا فيجعل أكبرهم تطمين الناس على دينهم وتهدى روعهم على حفظ معابدهم متعهدا لهم بحمايتهم والدفاع عن ذمارهم ويطلق لهم تمام الحرية فى اجراء كل طقوسهم الدينية وعوائدهم المليه ٠ كل ذلك عملا بتعاليم الاسلام وجريا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

هل بعد هذا يستطيع مكابر أن ينكر على المسلمين احترامهم للنوع البشرى أكثر من كل أمة سواهم أو يجحد أن دينهم أعلى وأسمى من أن يبنى على اختلاف المعتقدات الاباحة المطلقة فى سبيل الفتك والقسوة ٠ الاسلام لا يحلل الجور لتبعيه حتى مع ألد أعدائهم فى ساحة الوغى وميدان الهيجاء قال تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)

الاسلام لا يأمر الرجل بقطيعة أهله المخالفة دينه لدينهم بل يوجب عليه معاشرتهم بالمعروف وعمل كل الطرق فى أداء واجباته نحوهم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)

روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت أتتنى أمى راغبة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فسألته أأصلها قال نعم قال ابن عيينة فأنزل الله تعالى (لا ينهاكم

الله

الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين الآية) وأرسل عمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة الى أخيه هدية وهو مشرك ٠

الاسلام دين عام لم يجعله الله خاتمة للاديان وهو مريد به التفريق بين الأهل والعشيرة ولا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين النوع الانسانى بأكمله بل ان الرجل ليستطيع أن يكون مسلما وهو فى عائلة كل افرادها مخالفون له فى المعتقد والمذهب ولا تحمله تلك المخالفة على عمل شئ ضدهم على الاطلاق بل يلزمه الدين بعمل واجباته بالنسبة لهم والمدافعة عن حقوقهم ماداموا مراعين نحوه شرائط المحبة وصدق النية

الاسلام لا يكلفنا بجميل الخصال ومحاسن الخلال لنفعلها فقط فيما بيننا بل يكلفنا بها لنقوم بها نحو العالم أجمع طارحين على اختلاف الديانات غطاء كثيفا وحجابا غليظا قال عليه الصلاة والسلام (خاب عبد وخسر لم يجعل الله فى قلبه رحمة للبشر) وقال (تصدقوا على أهل الاديان كلها) بهذه الاوامر الالهيه عمل المسلمون ويعملون ولواتهمهم بضد ذلك المضلون ٠ كان عمر جالسا بين أصحابه فمر به رجل من أهل الذمة يتسول فنظر الى مجالسيه وقال لهم انا لم ننصف الرجل أيصح أن نأخذ منه الجزية وهو شاب ونتركه يتسول وهو شيخ ٠ كلا ٠ وأمر له براتب يصرف له من بيت مال المسلمين ٠ فتدبر رحمك الله فى هذه النفوس الكريمة والذرائع الرحيمة واعجب كيف تمكن الاسلام بنور الله ان يؤثر على أفئدة أولئك العرب الذين كان يضرب المثل بجاهليتهم حتى جعلهم غرة فى وجه المكارم وآية فى عدم الحقد الدينى فى زمان كانت فيه هذه الأميال الشريفة مفقودة من بين النوع البشرى بأسره اما من جهة حسن معاشرة المسلمين لمن يعيشون بين ظهرانيهم من أصحاب الديانات الأخرى فما لم يرد مثله فى تاريخ البشر قاطبة ٠ نعم بلغت منهم حسن المعاشرة لمخالفيهم فى المعتقد مبلغا لا نراه يحصل الآن ولا بين أخوين شقيقين ربيا فى عائلة واحدة وتفرعا من نبعة مشتركة ٠ قال مجاهد كنت عند عبد الله

ابن عمرو غلام له يسلخ شاة فقال يا غلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه قارن رحمك الله بين هذه المعاملة المدهشة وبين ماتسمعه فى البلاد المتمدنة من الجمعيات السرية والجهرية التى تتألف يوميا ولا هم لها الا اضطهاد اليهود واذلالهم . هل بعد ما بيناه فى هذا الفصل يستطيع كلاب الفتنة وذئابها أن يسموا المسلمين بتهمة الحقد الدينى (التعصب) واضمار الشر لكل من ليس من ملتهم . انا نسمع كل يوم فى بلاد المدنيه بأمر نازلة من آثار الحقد الدينى مايجعلنا نخجل من سماعها فهل سمعت يوما انه قامت فى بلاد اسلامية جمعية جعلت همها معاكسة طائفة من الطوائف التى تدين بغير الاسلام . اللهم كلا .

نحن قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نثبت للقارئ أن الحقد الدينى الذى برهنا على تجرد الاسلام والمسلمين منه من منذ ثلاثة عشر قرنا الى الآن كان ديدن سائر الأمم وداءها الذى أعيا أطباءها وانه لم يتوصل الى تخفيفه ولا أقول ملاشاته الا من منذ قرن تقريبا ولا نرى لذلك سبيلا أحسن من نقل ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت جول سيمون فى كتابه حرية الاعتقاد (قال ان حرية الأديان ليست بعيدة العهد . فان تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الدينى (التعصب) . هذا الحقد الدينى الذى هو أقدم من الحرية يتصاعد الى أبعد عصر فى التاريخ) ثم عدد آثار التعصب المذموم فى العالم كله من القرون الأولى الى الاعصار الوسطى ثم قال (وأخيرا توصلت الروح الفلسفيه الى تقرير حرية الأديان فى ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ ولكن لم تحقق هذه الأمنيه العادلة الا فى سنة ١٧٩١ وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فان الثورة الفرنساويه على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة فى الاعمال لم

تتمكن من تأسيس الحرية الدينيه) أما يحق لنا نحن بعد هذا كله ان نرفع صوتنا قائلين ليحيي الاسلام دين المدنيه والسلام

﴿ واجبات المسلمين بالنسبة لمعاهديهم ﴾

ان حفظ العهد واجب من أكبر الواجبات الاسلاميه فلا يبيح الاسلام نقضه لأى سبب من الأسباب الا اذا كان المعاهدون هم البادئون بنقضه كما انه لا فرق لدينا فى حفظ العهد بين أن يكون معاهدونا هم من أهل الكتاب أو من المشركين قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وقال الله تعالى بعد تعداده لصفات المؤمن (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) هذا ومن يتصفح تاريخ الاسلام من أول نشأته للآن يتحقق ان المسلمين رجال يضرب بهم المثل فى حفظ العهد وصدق النيه فى القصد وفى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة تليق أن توضع نصب أعين قادة الأمم فى طهارة الذمم وعلو الهمم . ومن يتصفح القرآن الكريم يرى فيه من الأوامر لحفظ العهد والنهى عن نقضه ما يجعله يتأكد أن الشريعة المحمدية لا تضارعها شريعة أخرى من حيثية مطابقتها لقواعد العداله وشدة يقظتها فى عدم تعدى حدودها ألا ترى أن الدين فى اثناء تحريضه لعصابته الضعيفة بالثبات أمام عدوهم الشديد البطش لم يغفل عن تذكير ابنائه حتى فى هذه الساعات الشديدة المخاوف بمعاهديهم لكيلا يلحقوا بهم أقل أذى قال الله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين)

أما معاملة المسلمين لأفراد الأمم المعاهدة لهم فلا تفترق عن معاملتهم لأهل الكتاب الذين تقدم الكلام عليهم فى الفصل السابق وقد أوصى عليهم نبينا صلى الله عليه وسلم فقال أمرنى ربى ان لا أظلم معاهدا ولا غيره) وقال عليه الصلاة والسلام

(من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنه * من أمن رجلا على دمه فقتله فانا برىء من القاتل ولو كان المقتول كافرا) هذا ومن يتصفح تاريخ الامم المتمدنه فى القرون السابقة يقشعر جلده من سلوكهم مع الامم الضعيفه فانهم ما كانوا يعرفون للحق قانونا غير القوة ولا للفضيلة ناموسا غير القوة فمن كان ينكده الحظ بان يصير ضعيفا كان يقع تحت ذل الاسر والعبوديه ويقيد بالسلاسل والاغلال ليكون آلة لمواليه فى الحراثة أو الصناعة أو غير ذلك

﴿ واجبات المسلمين بالنسبة لمحاربيهم ﴾

من المجمع عليه تاريخيا أن النبى صلى الله عليه وسلم قام بامر الدعوة الاسلاميه بمفرده فى مكة المكرمة فتبعه أفراد قليلون منهم نساء واطفال وشيوخ فاضطهده ومن أسلم معه اضطهادا شديدا وعذبوا عذابا أليما لا يمكن ان يحتمله الا من يرى الهلاك أيسر عليه من الارتداد عن حقيقته مثل ما حصل لخبيب رضى الله عنه حين أسر وعذب بالنار ولما عرضوه للقتل استأذن فى صلاة ركعتين فصلاهما ثم قال لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لاطلتهما اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم انبرى منشدا

ولست أبالى حين أقتل مسلما * على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع

هذا ما حصل لاحدهم وما كان يحصل لغيره أشد وافظع مما يطلب تفصيله من كتب التاريخ فاستمرت هذه المصائب على هؤلاء المسلمين مدة ثلاث عشرة سنه ثم أذن لهم بالهجرة الى الحبشة أولا ثم الى المدينة ثانيا فنموا هناك واشتد ساعدهم فرمتهم العرب كلهم عن قوس فظلوا فى المدينة فى أشد الخوف والوجل حتى كانوا يقولون (ترى

نعيش حتى نبيت مطمئنين لانخاف الا من الله عز وجل) فانزل الله تعالى عليهم هذه الآية تطمينا لهم وتسكينا لروعهم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيأ) ثم لما تجمهرت عليهم القبائل وأتتهم متحمسة حاقدة بقصد ابادتهم واصطلامهم أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ويثبتوا واعدا اياهم بالنصر والتمكين والفتح المبين فقال تعالى (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ٭ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) فكان سيد الوجود عليه الصلاة والسلام ومن معه من النفر القليل يلاقون بصدورهم تلك الجيوش الهائلة والكتائب المتراكمة المتراكبة وهم مطمئنون متيقنون ان الله تعالى لابد ان يحقق لهم وعده حيث قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وكان حقا علينا نصر المؤمنين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز) فاستعرت نيران الحروب بين طائفة المؤمنين القليلة العدد والعدد وبين سائر قبائل العرب مدة مديدة امتحن الله فى اثنائها قلوب عباده واختبر صبرهم وطاعتهم لأوامره وأمرهم على كل ما يمكن تصوره من المصائب حتى انتقت قلوبهم من كل شائبة وصار ايمانهم أنقى من النقاء وأصفى من الصفاء ثم مكن الله لهم فى الأرض وجعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى فصاروا قادرين على ابادة أضدادهم عن بكرة أبيهم ولكن كيف يتصور أن يحصل ذلك من دين الاسلام دين المدنية والسلام ٭ حاشا ٭ بل كان الله تعالى يأمرهم بمبرتهم والعدل معهم قال جل جلاله (لا ينهاكم الله عن

الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين)

ولما مكن الله للمؤمنين ووطد أمرهم وأراد أن يظفرهم على الذين ظلموهم فى أول نشأتهم وأذاقوهم أنواع الآلام أمرهم أن لا يتبعوا دواعى الانتقام والتشفى لكيلا يخرجوا عن حدود العدل والحكمة وأراهم أن ذلك يعد عدوانا وظلما فقال تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب)

لم تأت هذه الاوامر بالنسبة للمقهورين فقط بل يجب مراعاة الاعتدال والشرف والرحمة حتى فى أثناء اشتعال نيران القتال قال تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) ومن الاعتداء عند المسلمين سب اعدائهم ولعنهم . لما قتل المشركون عم النبى صلى الله عليه وسلم حمزة ومثلوا به وأخرجوا كبده بكى عليه بكاء شديدا وحزن حزنا لامزيد عليه ودعا عليهم فانزل الله تعالى (ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) فكف عن الدعاء عليهم وقال لئن ظفرت بهم لامثلن باربعين منهم فانزل الله تعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فقال عليه الصلاة والسلام أصبر وأحتسب .

أما من جهة أسراء الحروب فان النبى صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بمراعاتهم واكرامهم وعدم اساءتهم فقال (استوصوا بالاسارى خيرا) فصار أصحابه ائتمارا بهذا الحديث يكرمون أسراهم لدرجة أنهم كانوا يعطونهم خبزهم ليأكلوه ويكتفون هم بالتمر .

فتدبر رحمك الله ما قدمناه لك فى هذا الفصل تر التفاضل الواضح بين هذه العدالة الالهية وبين ما تقرأه من سيرة الرومان وغيرهم من الأمم التى كانت جاعلة نفسها

طاعونا مجتاحا للنوع البشرى فهامت فيه قتلا وسفكا وتسخيرا واستعبادا . واعلم أن كل ماتراه من آثار العدالة فى حروب هذا العصر ليس هو الاتقربا لهذه العدالة الاسلاميه التى هى نموذج لمنتهى ما يمكن حصوله فى النوع البشرى . فلندع الجمعيات الساعية لتأييد السلم فى العالم وابطال الحرب تعمل عملها العظيم وتجد فيه فان الاسلام لا يهزأ بعملها هذا بل ينشطها فيه حتى اذا تم لها ماتؤمله بمساعدة الملوك والقياصرة ودعمته على دعائم الاخلاص وصدق الطويه مد كل مسلم اليها يده تاليا قوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع عليم)

﴿ نظرة على الاسلام والمسلمين ﴾

قد بسطنا فى فصولنا المتقدمة كل أصول المدنيه التى انبنى عليها كل ماتراه من الترقى فى العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسية على انها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرائى انها مستمدة منه ومأخوذة عنه . وبرهنا ضمن ذلك ان هذه الاسس الاسلاميه لا يحتمل أن يعتريها التبديل أو يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشريه المثبتة بالحس مطابقة لا يمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل فى العالم وكل خطوة تخطوها العقول فى سبيل الكمال ليس هو الاتقربا الى الاسلام وانه سينتهى الأمر يوماما باجماع كافة عقلاء البشر على اعتبار الاسلام ناموسا عاما للسعادتين وضامنا للراحة الحياتين .

نعم الاسلام هو الدين العام الباقى ببقاء الانام والقانون الذى تلمسته الفلاسفة الاعلام منذ ألوف من الاعوام . اهتم عقلاء الامم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنويه ويوفق بين مطالبهما

على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقه بين أميالهما بطريقة تمنع تسلط أحدهما على الآخر . اهتموا بهذا الأمر وتحسسوه من كل مظانه لعلمهم بأن الانسان المركب من نفس وجسم اذا لم يراع تمام الاعتدال فى مطالب هذين الجوهرين وقع فى الافراط فى مطالب احدهما ومتى حصل له ذلك أخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه فى تيار شديد القوى لا يسرع به الا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه أو عضوا مشلولا فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل أسطع ولا بعد حوادث التاريخ برهان أقطع ان كل المذاهب التى لم تزن مطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الامم التى تسود عليها الى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آمادا مستطيله حتى يسود أحد أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقه ولم يجد امامه مقاوما يخفف من سيره تطرف واستهدف لكل ما يستلزمه الافراط فى أحد نوعى مطالب الانسان ولم يلبث أن تصيح به الطبيعة البشرية صيحة ترده مدبرا على عقبه فيصبح كأن لم يغن بالأمس . ومن يتصفح تاريخ الامم ير بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لا تعوزه الى بحث طويل .

أما نحن فأول من يوافق هؤلاء الحكماء على أفكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقا عادلا ويربط صلاح أحدهما بصلاح الآخر كما هو شأنهما الطبيعة . وقد اثبتنا فى فصولنا المتقدمة أن النفس عرضة للامراض المختلفه وللشفاء منها كما هى حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان الرجل لا يستطيع أن يحمى جسمه من عوارض الطبيعة المهلكه الا بتعلمه لقانون الصحة الجسميه فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسيه ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتاله ولما كان الجوهران المركبان للانسان موضوعين بطريقة بها يتأثر أحدهما بعرض

الآخر

الآخر وجب أن يكون ذلك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون في السير على أحدهما اضرار بالآخر • هذه الحقيقة أصبحت في هذا القرن خصوصا من البداهة التي لا يعترى فيها لأن حالة الوجود كله شاهدة بصحتها وهذه الحقيقة نفسها هي التي بعثت خاصة علماء أوروبا الى تأليف ديانة سموها الديانة الطبيعيه أسسوا بنيانها على دعائم البداهة العلميه والحقائق الفلسفيه ونحن نستحسن أن نأتي في هذه العجالة على أهم قواعدها مترجمة من كتاب (الابحاث الاخلاقيه على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو قال (قواعد الديانة الطبيعيه هي الاعتقاد بوجود اله مختار خالق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونيه وعن النوع الانسانى والاعتقاد بوجود روح في جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى أمدا لتبتلى فيه وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء • والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس • ووضع الحريه الاخلاقيه التي هي ينبوع وأصل كل الحريات الاخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلى • واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقى وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة وأخيرا الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة وتحلها •)

لاشك ان كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفي قواعد هذه الديانة الطبيعيه يرى بعينيه ان الاسلام هو تلك الأمنية التي تحسسها الفلاسفة وتلمسوها في سائر ابحاثهم العلمية من قديم الزمان الى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التي يخطوها النوع البشرى بين كل

هذه القلاقل الاجتماعيه فى سبيل الرقى والتدرج متقربا كل يوم من قواعد الدين الاسلامى على غير علم من أفراده ويتأكد ان الاسلام هو الغاية القصوى التى وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره وأفاعيله فى تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق)

من هنا أيضا يدرك المعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذى حصل فى الأمة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد ان كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان . فلنبحث فى حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التى انهكت قواهم من منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن بغاية الاسف رأينا أكثرهم أغضى كل الاغضاء عن ذات العلة واخذ يجهد نفسه فى مداواة الاعراض المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته مادام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعى فى جسم الهيئة الاجتماعية الاسلاميه . أما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذى لم ينتج فائدة ما بل نريد أن ننقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله الى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول . لا يخفى على كل انسان ان مدنية المسلمين التى تكونت جرثومتها فى جزيرة العرب فتفرعت أفنانها فى مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الاسلاميه ويمكن كل انسان باستقراء التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على ان هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيرا وأكثرها بهجة وأوسعها بقاعا وأعجبها منبتا وأقواها امتثالا لازمة ذويها وتأثيرا على أذهان متبعيها وانها كانت جامعة لناموس كل

السعادات الاجتماعيه وهما العلم والعمل . هذه أمور يهديها النظر المجرد فى تاريخ المسلمين فى مبتدإ أمرهم ولكننا الآن لو أجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلاميه فلا نرى الا عكس ما كان عليه آباؤنا الاول . نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى وآخذة فى محو أهميتنا شيأ فشيأ مع ان كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده . فهل ذلك مصداق لقول متطرفى فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عموما تقييد الانسان عن الرقى ومنع النفوس عن التدرج فى معارج الكمال . كلا . فان أقل نظرة فى حالة العرب فى جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم فى مدنيتهم وسرعة رقيهم بعده مما لم يعهد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . اذن هل هذا الأثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدنة للامم ومرقية لشأنها فى عصر من العصور لم تخل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقى فى المستقبل لمضادتها لسنة الازمنة والمناسبات . كلا . فانا درسنا أهم نواميس الاسلام فى كتابنا هذا درسا مدققا فلم نره الا مطابقا لقوانين الحياة البشرية ملائما لقواعدها ورأينا رأى العين أنه لم يصنع للرقى حدا تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المشرعون الأول جهلا منهم بسنن الحياة المستقبلة وأطلق كل خصائص النفس من اغلالها الأولى وترك لها أعنتها ولكن بعد أن نقلها الى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لا ننتظر أن يأتى زمان يقال فيه ان الاعتدال مذموم وان المحمود هو الافراط أو التفريط . اذن ما هو السبب فى تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم فى عشر فضائلهم . أما نحن فلا نجد السبب الا فى هذا الأمر المهم ألا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل .

انا قد برهنا فى فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنيه والاحاديث النبويه وأحوال الجمعية الاسلاميه الأولى ان غرض الاسلام الأول هو ترقية شأن

الانسان ماديا وأدبيا على حسب ناموس الرقى العام الذى استدل عليه باستقراء أحوال الانسان وتطوراته وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لاداء وظيفتها الا أشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلا فى الاذهان ولا للريب مجالا فى الوجدان . ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لا يفهم من الاسلام الا انه محض قواعد للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات فى الدنيا أو نوال الدرجات العلى فى الآخرة ولا يعلمون منه الا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج وأما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التى بعثت الأمة العربية من جدث خمالتها الاولى الى ذروة جلالتها التاليه فقد ضربوا عنها صفحا مع انها هى لباب الدين وزبدة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه .

جاء الاسلام موفقا بين مطالب النفوس من المقاوم المعنويه والمنازل الاخلاقيه وبين مطالب الجثمان من الاشياء الماديه ليكون متبعه انسانا كاملا عادلا بين مطالب طبيعته موفقا بين أميال جوهريه فيقول الله (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه) ولكن لوى سوادنا الاعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الأمم السابقة فى فهم الدين وزعموا انه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم فى ذلك افكار ما أنزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا) ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم (ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك) فاسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء أنفسهم ان الدين هو عبارة عن التفرغ الكلى من علائق الدنيا والانفراط

المطلق من كل الأميال المدنيه . فعلوا كل هذا ولم يعلموا انه السرطان الذى أباد الامم السابقة والطاعون الذى استأصل النحل المتقدمة ولكن كيف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون فى محالهم جاعلين سدا منيعا بينهم وبين هذه الآية (افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) هذا الفهم السيئ فى معنى الدين أدانا الى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن أصحابه الكرام فالتقى على حسب دهمائنا الآن هو الرجل الذى خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له فى الدنيا أقل أمل وكان على تمام الجهل بأحوال الأواخر والاول والذى ان مشى كان على مهل وان جلس كان فى عنقه ميل وان دعى الى مهمة أو رثها الخلل والزلل . هذه هى صفة التقى عند أكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل فى أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الدينى كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للانام رجال الجد والعمل وأهل الشيم والهمم وقادة العلاء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار الا وردوها ولا راية للمجد الا ورفعوها حتى أعلوا كلمة الحق على الاباطيل وقوضوا دعائم الجور والاضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادمت الجبال لسحقتها سحقا أو لحظت الثريا لمحقتها محقا . همة يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد همتهم بجانبها الا عجزا واقتصارا . همة عرجت بنفوسهم الى سموات الرفعه عن دنايا الامور وسفاسف الاعمال وعلت بهم عن التدنى للفجور وخسائس الاميال . همة كما ذادتهم عن الرتوع فى حمأة الشهوات بعثتهم الى منازل الكمالات وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم الى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة فى صورة آدميين ونورا ساطعا ولو كان غلافه من طين . هذه هى التقوى التى رسمها الاسلام لمتبعه وخطها الذويه

لا ما نراه الآن من التقوى التي لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور .

هذا الفهم السيئ في التقوى الذي أوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا نقسم الناس الى قسمين قسم نسميه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدويه أو بابحاثهم الفكريه . وقسم نسميه أهل الأخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانبا وأوقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشي في الطرقات خلف الطبول وتحت الاعلام وانبنى على هذا التقسيم الوهمي الذي تأصلت جذوره في العالم الاسلامي من منذ قرون عديده أن أوقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوم التي عليها مدار السعادة المادية كما أوقف أهل الآخرة أنفسهم للاشتغال بالعلوم العباديه فصار القسم الاول بهذا الاعتبار جاهلا للدين جهلا يوقعه في الشكوك والشبهات وصار القسم الثاني جاهلا للدنيا وأمورها جهلا أداه الى العماية عن سياسة أحواله المعاشية فوقع في العوز الذي أداه الى مد يده واراقة ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستا رقيق وحاجز شفاف .

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادئ الدين الاسلامي من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لا كثرها تعطيلا . قلنا فيما سبق ان الاسلام هو الدين العام الذي يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقا لا محيص منه لمن أراد أن يستقيم على الجادة الحكيمة وأثبتنا ذلك بالادلة القاطعة وقلنا ان الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام (من تبتل فليس منا) وانه جاء لاصلاح الدين والدنيا معا (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة * وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) . وأكدنا بالادلة الناطقة انه يحض على الكسب والعمل ويردع من الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيرا على الاذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وان الاعمال في نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقا

موزورا وان نوى صالحا فأخطأ فيه كان مثابا مأجورا • قال عليه الصلاة والسلام (انما الاعمال بالنيات) قال على رضى الله عنه ما معناه (من أخذ الدنيا وما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد ؛)

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه فى فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الادلة التى لا تقبل النقض ونريد هنا تحويل الانظار الى أحوال الجمعية الاسلاميه الأولى فان افرادها لم يكونوا منقسمين الى قسمين قسم دنيوى وآخر أخروى ؛ بل يروى لنا التاريخ انهم كانوا كلهم يدا واحدة فى العمل للدين والدنيا معا فان أبا بكر وهو أول المسلمين كان تاجرا ولم يبطل مهنته الا حين تبوأ عرش الخلافة • وروى الامام أحمد بن حنبل ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم ؛ ولقى أبو قلابة رضى الله عنه صديقا له فى المسجد فقال له (لان أراك تطلب معاشك خير من أن أراك فى زاوية المسجد) وكان عمر رضى الله عنه يقول (ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الىّ من موطن أتسوق فيه لاهلى أبيع وأشترى • ذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للأخرى فكان يقول اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) و يقول (احرثوا فان الحرث مبارك) ويقول (اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض) ويقول (تسعة أعشار الرزق فى التجارة) ويقول (العبادة عشرة اجزاء تسعة منها فى طلب الحلال) هذه هى نصوص الديانة الاسلامية وأحوال جمعيتها الأوليه فى عدم التفريق بين الحاجيات الدينيه والدنيويه وهذا هو عين السبب الذى حمى المسلمين فى مبدإ أمرهم من الانقسام الى حزب دينى وحزب دنيوى وهو الأمر الذى يوجد التخالف بين نزعات الامة و ينشئ التناقض فى أغراضها فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغما عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الأمر الى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطما يفضى بالجمعية الى الفوضى الفكريه ومتى تأصلت تلك الفوضى تفككت

عرى الجامعة الاساسيه التي تربط اجزاء الامة بعضهم ببعض وأخذوا يشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم في مستقبلهم فاذا انتهى حال الامة الى هذه الدرجة أخذ القسمان الديني والدنيوي يتبادلان القاء المسؤلية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارئ الى تمادي الكافة في شهواتهم البهيميه ويعزوه الدنيويون الى تقصير أساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزغات ذوي الاهواء ويستمرون في هذه الملاحة الفارغه بينما تكون جراثيم الفساد آخذة في التفشي والانتشار جارفة الامة أمامها الى مهاوي الدمار والبوار .

هذه هي حالة الامة الاسلاميه فانها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الأولى فاوقعها فيما وقع فيه الأمم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين أهلهما أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقي التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هو أكثر الاجيال شعورا بضرورة فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشدها تقريعا لعلمائنا في تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر .

نعم اننا نشعر بتهيؤ النفوس الى انتشاق نسمات الكمالات الاسلاميه المنعشة لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقي الذي قد عم وطم وساق النشأة الحديثة الى نقطة فقدت فيه الاحساس الا بالدنايا والادناس . نعم انا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة الا اننا نستميح من قرائنا الحرية لاجل أن نقول ان ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضروريه . فكأني بالناس يريدون أن تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الاسلاميه فتغمر قاصيهم ودانيهم وهم جالسون على أسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الأمل أو يجعله ممكنا . بل كأني بهم يرون ان تلك الفضائل لا يمكن تأتيها الا بواسطة رجال يلبسون شكلا خاصا من الالبسة او يقرؤن كتبا مخصوصة في العلوم . كلا فانا ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود في دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل الاسلاميه التي كان يفهمها الاعرابي الجلوي في مدة

قصيرة

قصيرة لا تعسر مطلقا على نشأة هذه الامة المتهذبة . أسس الاسلام لا تحتاج لاجل ان تنفذ الى العقول الى جدال أو الى تمهيد بل هى قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لا يستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه فان كان الرجل عالما بحقائق الكون وأراد ان يفسر سر تلك الطمأنينة التى سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فعليه الأن يتدبر فى أسرار الخالق وفى تكاليف الحياة البشريه وفى النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون بأسره وفى الغرض الذى يسعى اليه الانسان رغما عنه ليرى بعينيه عيانا ان تلك الاسس الاسلاميه على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هى المحجة الوحيدة الى توصل الانسان الى سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه وأخراه وانها هى نفس المحجة التى خلق الانسان مطبوعا على المسير عليها والتى يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون فى تذليل كل الصعوبات للوصول اليها . اذا كان هذا شأن اسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا نتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكى من قصور المرشدين عن ابانتها مع انها مبسوطة باصرح عبارة وأرق اشارة فى القرآن الشريف وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هل يظن المسلمون ان الله تعالى لم ينزل القرآن الا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سردا وبدون تعقل على رؤس القبور وفى أوساط الطرقات أو ليتلى بألحان الغناء فى ليالى الأفراح بين لغط المرجيلات ودخان السجارات . أم هل يظنون ان أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح ان تتلى الا لقضاء الحوايج وحصول البركات فى المنازل . ليعلم المسلمون ان كل هذه الأمور تنافى الاسلام وتساعد على استجلاب سخط رب الاسلام . ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة . وأحاديث رسول الله وهى خلاصة قوانين العمران لم يأمر الله بتلاوتهما فى الطروس ونشرها بين سائر طبقات الأمة الا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادتين ومسالك الحياتين وفى تاريخ المسلمين أكبر

حجة على قولنا هذا . ها نحن شعرنا بالحاجة الى كمالات الاسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته (ولا نكلف نفسا الا وسعها) ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء امام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى أفواههم بدون مد أيديهم . أليس من العار المشين أن نصرف كل أوقاتنا فى مطالعة روايات (أميل زولا) و (بول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذى جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود بأسره . انا ندعى التمدن والتنور ونميل للتشبه بالمتمدنين فى الجرى وراء اكتشاف مساتير الكون ونرمى القاعدين منا بالخمول والموت الفكرى ونحنى رؤسنا اعجابا بنظريات (سبنسر) فى العمران و (جمبتا وتيبرس) فى السياسة و (ريبوا) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذى لو أفنى علماء العالم كله أعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا الى جزء منها . لعلنا نخجل من الاشتغال بالأمور الدينية تقليدا الغيرنا خشية من أن نتهم بالقصور العقلى . ان كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه اجالة نظرنا قليلا فى كتابنا السماوى لنرى أن الاسلام ليس بالدين الذى يأمر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس فى المهانة أو باضناء الجسم فى العبادة مما هو مناف لمطالب المدنيه الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذى يأمر بالكد والعمل ويحبب للانسان السؤدد وعلو الهمم ويهديه الى الفضائل والشيم كل ذلك بحكم لا تقارن حكم الفلاسفة بها الا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فالمتكلم فى الاسلام والحالة هذه لا يكون مرددا لافكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقا عن لسان الحكيم العليم بحكم لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ۞ بنظريات تصيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لا يعتريها الخلل ولا يعتورها زلل بأسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بأنوار تنفذ الى صميم الفؤاد فتشرق فيه شمسا لا يخبو ضياؤها ولا تنطمس لألاؤها تنير على المرء

حزون

حزون هذه الحياة الكدره وتفك له عقدها العسره ٭ تداوى جراح الافئدة عما أصابها من سهام الحوادث وتضمد قروحها من طعنات الكوارث وتطرد من النفوس شياطين أوهامها وتطهرها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه الى سعادتها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الاعلى وتنال منه زبد العلم الأجلى .

ألا تنظر الى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجيه قبل اشراق الاسلام عليهم ثم الى مصيرهم بعده ٭ ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابنته الى الفلاة وهى على ذراعه فيحفر لها حفرة وهى تنظر اليه وتحنوا بفؤادها عليه فلا يجد فى نفسه فؤادا يحن عليها وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب الى أهله فرحا مسرورا كأنه لم يفعل الا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وخز الشنعه ٭ تدبر بعيشك الى هذه القلوب القاسيه والاحساسات العاتيه ثم انظر اليهم بعد اعتناقهم للاسلام ٭ ترى ماذا ٭ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة مالم ينله رجل ربى فى مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة ٭ ترى أمثلة للشهامة والفضيله وأساطين للسجايا الجليله والاخلاق الجميله قاموا يعلمون فلاسفة الاخلاق عما لهم ومقالهم قصور مادونوه فى أسفارهم ٭ ترى أناسا نور هم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقارا ويفوقون الاكاسرة همة واقتدارا انظر الى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه فى زمن الجاهلية والى ماذا آل أمره بعد ان أسلم ببضع وعشرين سنة آل أمره الى ادراك حكمة وسياسة وثبات أعز بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم عما يقصر عنه أكبر ملك تربى فى مهاد التشريع ويكبودونه أعظم فيلسوف ولد فى حجر الحكمة والسياسة ٭ وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب الله فيغشى عليه منها أو يمرض لاجلها أياما عديدة ٭ فكان المتنبى عناه بهذا البيت

قسا فالاسد تفزع من يديه ٭ ورق فنحن نفزع أن يذوبا

من أين حصل له هذا وعذا ناله . هل درس الاخلاق فى مدارسها الكلية أم علم العمران فى مجامعها العلمية أم السياسة على المنابر البرلمانيه أم التشريع فى المدارس الحقوقيه . كلا . لاشئ من ذلك ولكنه كان يتلوا القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسأل غيره فيما كان يتعسر عليه منهما . هذا رجل واحد قد ضربناه للتمثيل لترى بعينيك سلطة الدين الاسلامى فى احالة الطباع وسرعة تأثيره فى تغيير اتجاه النزعات وفى تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه . فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها وأخلاق نتصف بها ونقتنع بعد اخفاق المسعى بأن نلقي تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسيء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على القبور والمدافن يتلوها رجال لاخلاق لهم من العلم . هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول (واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين)

خلاصة القول ان دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الاسلام ويدركوا ان غرضه الأول هو ترقية حالتي الانسان الماديه والادبيه مع الارتباطهما ببعضهما ارتباطا كليا لاجل أن تستطيع النفس أن تعرج الى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجا سريعا . وأن يفقهوا ان لفظة عبادة فى الاسلام لا تعني فقط العبادة الجسمية من ركوع وسجود بل ان كل ما يفعله الانسان مريدا به أمرا ينبني عليه اصلاح لذاته أو لعائلته أو لجمعية أو لبني نوعه . أو للكائنات كلها هو فى نظر الاسلام من أحسن أنواع العبادة وأشرف أحوال الطاعة لله جل وعز (ان المؤمن ليؤجر فى كل شئ حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته * والشاة ان رحمتها رحمك الله) حديثان شريفان . وأن يدركوا ان الاسلام لا يعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب اليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الاسس الاسلامية تنطق بتأييدها مآت من الآيات القرآنيه وألوف من الاحاديث النبويه وأحوال الجمعية الاسلامية الأوليه حتى ان المرشد المتنور ليستطيع أن

نقشها فى مخيلة تلميذه فى درس واحد . هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله
للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لا يزحزحها عن مواضعها الا كرور
الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لم تظهر للآن بوادرها .
وانا نختتم مقالنا هذا برفع أكف الرجاء الى الله جل وعز أن يهدينا الى صراطه
المستقيم ومنهاجه القويم وان يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم وان
يحسن خواتمنا أجمعين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله
وصحبه ومتبعيه وسلم تسليما كثيرا .

﴿ طبع بالمطبعة العثمانيه بحارة سوق الزلط بمصر المحميه ﴾
(فى ١٨ ذى القعدة)
سنة ١٣١٦



